

موسوعة التاريخ
الإسلامي

المسلمون في إفريقيا جنوب الصحراء



سقيم

A:J
297.09
M462m
v.9
c.1

موسوعة سفير
للتاريخ الإسلامي

A
JF
297.03
M462 m
n. 3

تاريخ المسلمين في إفريقيا (الجنوبي الصحراء)

LAU - Riyad Nassar Library
09 JUL 2008
RECEIVED

أهداء عن روح المرحوم الحاج
أبراهيم سعيد كرتيه

تأليف

أ.د. رجب محمد عبد الحليم

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

بجامعة القاهرة

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لشركة سفير

٥ ش جزيرة العرب - المهندسين - القاهرة. ص.ب: (٤٢٥) الدقى

GHA M5579

مقدمة الكتاب

يقسم بعض المؤرخين قارة إفريقيا إلى جزأين رئيسيين هما إفريقيا شمال الصحراء، وإفريقيا جنوب الصحراء، لتسهيل البحث والدراسة، نظراً لاختلاف الظروف والأحوال ومجرى التاريخ في كلتا المنطقتين .

والمقصود بالصحراء هنا هي الصحراء الكبرى التي تمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً، وتقع في شمالها الدول العربية الإفريقية، وهي مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب، ويضم إليها موريتانيا والسودان اللذان يربطان بين شمال القارة ووسطها وجنوبها .

أما الدول التي تقع في جنوب الصحراء فتتمثل في بلدان إسلامية عديدة، مثل: السنغال وغينيا ومالي والنيجر ونيجيريا وتشاد والكاميرون وإريتريا والصومال وتنزانيا، وكان لكثير من هذه الدول مسميات أخرى في فترة نشأتها وتحولها إلى الإسلام، فكانت تعرف «السنغال» باسم «غانة» أو بلاد «التكرور»، ونيجيريا باسم بلاد «الهوسا»، و«تشاد» باسم بلاد «الكانم» و«البرنو»، والصومال و«جيووتي» و«هرر» باسم بلاد «الطراز الإسلامي» أو بلاد «الزليغ»، وإريتريا باسم بلاد «الدناكل» أو «الأعفار»، وتنزانيا باسم «كلوة» و«زنجبار» .

وسوف ندرس هذه البلاد في مسمياتها الأولى التي عرفت بها عند اعتناقها الإسلام، حتى جاء الاستعمار الأوربي الحديث، وأعطى بعضاً منها مسميات جديدة، تتفق مع التقسيمات والتجزئة التي فرضها على القارة كلها.

وقد دخل الإسلام إلى إفريقيا عبر طريق برزخ السويس وشبه جزيرة سيناء، ومنه انتشر في مصر وشمال القارة، وعبر طريق البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندي، ومنه دخل إلى شرق إفريقيا والصومال والحبشة، وعبر الصحراء الكبرى، ومنها انتشر الإسلام في غانة ومالي ومنطقة بحيرة تشاد، وعبر وادي النيل والصحراء الشرقية، وبواسطتهما انتشر الإسلام في بلاد النوبة والسودان وشمال الحبشة .

وانتشر الإسلام عبر هذه الطريق سلماً دون قتال، حمله الدعاة المسلمون والفقهاء، الذين انطلقوا من المساجد والزوايا، والتجار الذين انطلقوا من مراكز التجارة التي أقاموها في مناطق مختلفة من القارة، كما كان لهجرات القبائل العربية وغير العربية أثر كبير في نشر الإسلام واستقراره، وإقامة دول له هناك .

وقد تأثرت الشعوب الإفريقية بالإسلام وحضارته وتفاعلت معهما، وظهر ذلك في انتشار اللغة العربية في كثير من بلدان القارة، وأصبحت هي لغة الحديث والعلم والفن، وأصبحت اللغة الرسمية وبخاصة في شمال القارة وشرقها، وكذلك كانت في بلدان غرب القارة ووسطها حتى قضى عليها الاستعمار الأوربي في العصر الحديث، كما تأثرت تلك الشعوب بالإسلام في زيههم ونظم حكمهم وتنظيم دولهم، وتطبيق الشريعة الإسلامية في معاملاتهم وأحكامهم، حتى عمت الحضارة الإسلامية معظم بلاد القارة الإفريقية .

الهيئة المشرفة:

أ.د. حسن محمود الشافعي

عضو مجمع اللغة العربية والأستاذ بجامعة القاهرة.

أ.د. حسن علي حسن

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة.

أ.د. عبدالشافعي محمد عبداللطيف

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة الأزهر

أ.د. عبدالله جمال الدين

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة.

أ.د. محمد حرب

رئيس مركز بحوث العالم التركي

المحرر العام

أحمد عبدالفتاح تمام

تحرير

عمر على الكومي

الإشراف على التنقيح

عبدالحميد توفيق سامي عبدالرؤوف

المراجعة اللغوية والتصحيح

زينهم البدوي حمدي بنورة

الإخراج الفني

ماهر عبدالقادر

رسوم

محمد نادى عبد المرضى عبيد

محمد طراوى عصام طه

إبراهيم الطهطاوى ماهر عبد القادر



رقم الإيداع: ٨٠٤٢ / ١٩٩٦

الترقيم الدولي : 9-497-261-977 I.S.B.N

الطرق التي سلكها الإسلام إلى قارة إفريقيا

أولا : الطرق التي سلكها الإسلام إلى قارة إفريقيا (جنوب الصحراء) كثيرة ومتعددة ، منها :

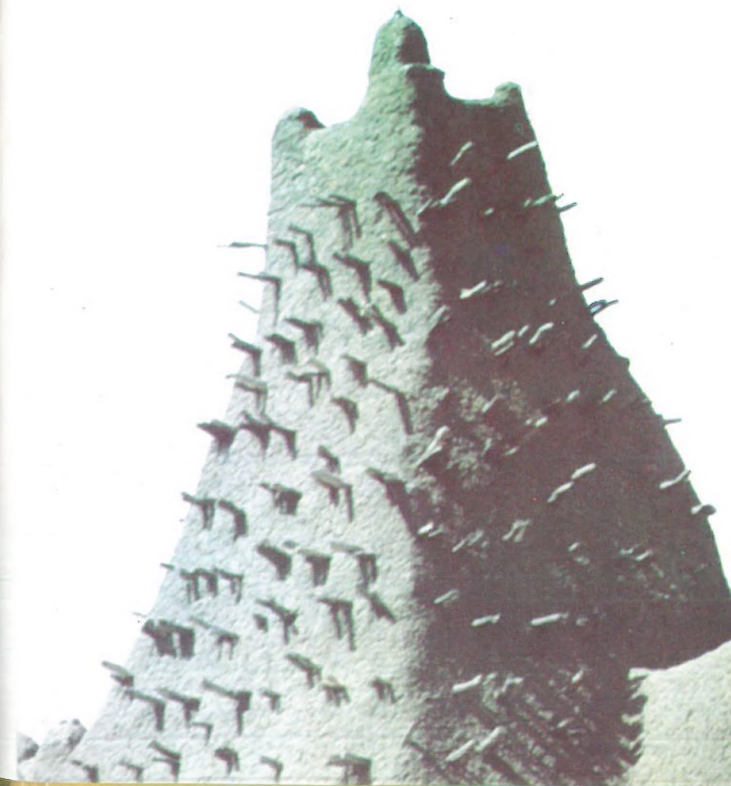


طرق القوافل التجارية التي تربط بين شمالي القارة وبلاد السودان الغربي والأوسط (غرب إفريقيا) ، ومنها الطريق الذي يبدأ من جنوبي «تونس» ويتجه إلى «بلاد الكانم والبرنو» في حوض بحيرة «تشاد» ، والطريق الذي يبدأ من جنوبي «الجزائر» ويتجه إلى «بلاد الهوسا» في شمال «نيجيريا» ، والطريق الذي يبدأ من جنوبي «مراكش» ويصل إلى مصب

«نهر السنغال» ومنحني «نهر النيجر» و«نيجيريا» و«تشاد» . وطريق بحري يسير عبر مياه «البحر الأحمر» و«خليج عدن» و«المحيط الهندي» ، ويربط هذا الطريق بين «شبه الجزيرة العربية» وشرق إفريقيا ، ومنه دخل الإسلام إلى شرق القارة وخاصة إلى «إريتريا» و«الصومال» و«الحبشة» و«زنجبار» وساحل شرقي إفريقيا حتى مدينة «سوفالة» جنوب «نهر

الزيمبيزي» في «موزمبيق» . وطريق وادي النيل وطريق درب الأربعين اللذان تدفق منهما الإسلام إلى «بلاد البجة» و«بلاد النوبة» وإلى «دار فور» وبقية «بلاد السودان الشرقي» ، وهو «سودان وادي النيل» الذي يعرف الآن بجمهورية السودان .

ويلاحظ أن معظم هذه الطرق طرق تجارية ، ولم تستخدم كمعابر للجيوش إلا في القليل النادر ، مما



يؤكد سمة الطابع السلمى لانتشار الإسلام في قارة إفريقيا . ومما يؤكد ذلك أيضاً أن أهل القارة أنفسهم سواء أكانوا من البربر أم من الزنج والسودان هم الذين قاموا بنشر الإسلام ؛ بعد أن وصلت الدعوة إلى بلدانهم وإلى ماوراءها من بلدان ، ولم تكن حركات الفتح والجهاد التى حفل بها تاريخ الإسلام فى القارة خلال بعض

الفترات لاسيما فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين من بعدهم ذات أثر كبير فى نشر الإسلام ؛ إذ لم يكن هدفها نشر هذا الدين بقوة السلاح كما يدعى كثير من المستشرقين وأعداء الإسلام، وإنما كان هدفها هو إزاحة العقبة التى كانت تحول دون وصول الإسلام بالحكمة والموعظة إلى أهل إفريقيا، وكانت هذه العقبة تتمثل فى جيوش الاحتلال البيزنطى ، التى كانت تحتل «مصر» والساحل الشمالى لإفريقيا كله قبل فتح

الإسلام لهذه البلاد . وبعد أن أنقذ المسلمون أهالى القارة من هذا الاحتلال البغيض ، أصبح الطريق مفتوحاً أمام الدعوة، ومن ثم تلقفها الأفارقة بشغف وحب شديدين ، واتخذت الدعوة إلى هؤلاء الأفارقة أشكالاً متعددة وعلى يد أناس مختلفى الصفات والاتجاهات ، منهم الدعاة الذين وهبوا حياتهم لهذا العمل العظيم ، ومنهم التجار الذين جمعوا بين الدعوة والتجارة ، ومنهم الحجاج الذين تأثروا بمظاهر الأخوة الإسلامية

فى موسم الحج وأثروا فى إخوانهم وأهاليهم بعد أن عادوا من الحج مشحونين بشحنة دينية عميقة . ومنهم المهاجرون الذين أتوا فى هجرات عديدة شملت العرب وغيرهم ، وحملوا معهم الإسلام والثقافة الإسلامية ، ومنهم الصوفية الذين اخترقوا أعماق القارة ووصلوا إلى النجوع والكفور والقرى والغابات ، وسوف نفصل الحديث عن هذه الوسائل التى انتشر الإسلام بها فى القارة الإفريقية (جنوب الصحراء):

١ - الدعاة :

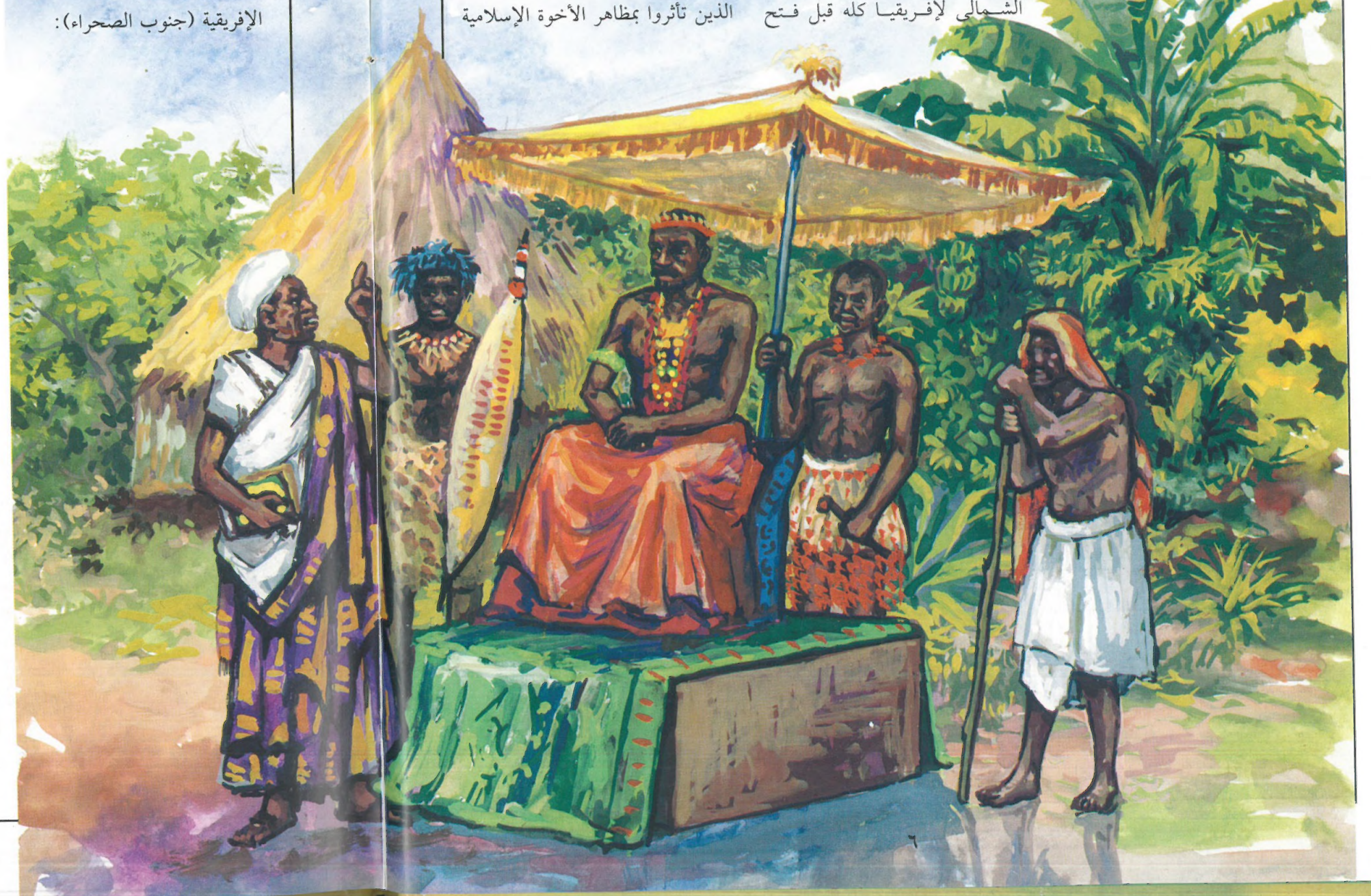
ويقصد بالدعاة الأفراد المسلمون الذين تلقوا قدرًا من العلوم الدينية، وعلى رأسهم الفقهاء والعلماء والمشايع والقراء والقضاة، وكان هؤلاء يسمون فى مختلف أنحاء القارة بأسماء مختلفة ، مثل المرابط، وألفا ، والمعلم ، والفيقيه، والشيخ ، وسيدنا ، ومولانا . وكانوا يحظون بنصيب كبير من الاحترام والتقدير ، وكانت كل قرية فى إفريقيا تقيم داراً لاستقبالهم واستضافتهم ، وكان الحكام والملوك الأفارقة سواء أكانوا مسلمين أم وثنيين يعاملونهم باحترام كبير ، وكانوا يتخذون منهم مستشارين ووزراء يصرفون لهم أمور الدولة ، مثلما كان الحال فى دولة «غانة» الوثنية ، كما يقول «البكرى» الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى . وكان هؤلاء الدعاة ينشئون الكتاتيب لتعليم الأطفال الوثنيين القراءة والكتابة وبعض العلوم الأخرى ، ومن ثم يصبح هؤلاء الأطفال بذرة إسلامية داخل الأسر الوثنية ، وكذلك كان الدعاة ينشئون المدارس التى كانت تعد مركزاً مهماً لنشر الإسلام وثقافته ، وكذلك المساجد والزوايا والأربطة والخلاوى التى كان يلتقى فيها الأفارقة بالدعاة ويتلقون عنهم العلوم الدينية ؛ حيث يخرجون

دعاة للإسلام بين أهليهم وأقاربهم من الوثنيين .

ولذلك انتشر الإسلام بين الأفارقة ، خاصة بعد أن اعتنقه بعض ملوكهم الذين كانوا يتحولون تلقائياً إلى دعاة للإسلام فى بلادهم . ومن هؤلاء ملك «مالى» وملك «التكرور» وملك «سلى»، فقد نشر هؤلاء الإسلام بين شعوبهم من التكرور والسوننك والماندنجو وغيرهم من شعوب غرب القارة . وخرج من هذه الشعوب دعاة تخصصوا فى الدعوة إلى الإسلام حتى أصبحت كلمة تكرورى أوسونكى تعنى داعية للإسلام عند شعوب هذه المنطقة .

ومن أهم الدعاة الذين نشروا الإسلام بين البربر فى «الصحراء الكبرى» والتكرور فى «السنغال» والسوننك فى «غانة» ، الشيخ «عبدالله بن ياسين الجزولى» المتوفى عام (٤٥١هـ = ١٠٥٩م) ، والذى قامت على يديه «دولة المرابطين» الكبرى قبل ذلك ببضع سنين .

وهناك داعية آخر قام بنشاط كبير فى حوض «نهر النيجر الأعلى» هو «أبو القاسم على بن يخلف» ، الذى أسلم على يديه ملك مالى الذى اتخذ لقب المسلمانى (أى الذى أسلم)، بعد إسلامه فى القرن الحادى عشر للميلاد ، وفى بلاد





التجارة حرفة رئيسية ، وصار هؤلاء التجار الأفارقة دعاة للإسلام، وقلدوا المغاربة في إقامة بعض الأسواق في مدن معينة في أيام معلومة .

وكان هؤلاء التجار سواء كانوا من العرب أو البربر أو السودان ينزلون في هذه الأسواق أو في المراكز التجارية ويحتكون بالزنج ويؤثرون فيهم بنظافتهم وأمانتهم وسلوكهم الشخصى القائم على قيم الإسلام وتقاليده السامية ، وغالبًا ما ينتهى هذا الاحتكاك بدخول كثير من هؤلاء الزنوج فى الإسلام الذى كان يتركز أولا فى المدن التى ينشط فيها التجار بوجه خاص ، وكانوا

وقد قام العرب والبربر بدور كبير فى هذا النشاط التجارى ، وأصبحت مدن الشمال الإفريقى مراكز للتجارة بجانب كونها مراكز للعلم والثقافة، ووصلت إليها السلع الإفريقية ، واتجه تجار العرب والبربر واخترقوا الصحراء الكبرى ووصلوا إلى بلدان إفريقيا جنوب الصحراء ، وكان لذلك أثره الكبير فى نشر الإسلام الذى أقبل مع قوافل التجار ، وازداد انتشاره بعد أن انتقل معظم النشاط التجارى إلى أيدى السودان والزنوج أنفسهم من تجار «الفولانى» و«التكرور» و«الهوسا» و«الكامية» والصوماليين وغيرهم من الأفارقة الذين اتخذوا

٢ - التجار :

كان للتجار الدور الأول فى نشر الإسلام فى القارة بعد الدعاة، ويظهر ذلك من قول السير «توماس أرنولد» فى كتابه «الدعوة إلى الإسلام» أن التجارة والدعوة إلى الإسلام مرتبطان كل الارتباط .

وقد تدفق الإسلام عبر الطرق التجارية الموصلة بين مختلف أنحاء القارة ، والتي أشرنا إليها من قبل، إلى حوض نهري «السنغال» و«النيجر» ومنطقة حوض «بحيرة تشاد» ، وكذلك إلى «الصومال» و«بلاد النوبة» و«السودان» و«الحبشة» ، و«ساحل شرق إفريقيا» .

إلى بلاد «الحبشة» فى عهد «عمر ابن الخطاب» - رضى الله عنه - ، وأنشأ أحفاده دولة إسلامية فى «إقليم شوا» وسط هضبة الحبشة ، كذلك وفد دعاة من «بنى عبدالدار» أو من «بنى عقيل بن أبى طالب» إلى بلاد «الزليغ» و«الصومال» و«إريتريا» وأنشأ أحفادهم سلطنة إسلامية أخرى فى هذه البلاد تسمى «سلطنة أوفات الإسلامية» .

وهكذا كان للدعاة فضل كبير فى نشر الإسلام وثقافته ، وفى إقامة سلطنات إسلامية فى كثير من نواحي القارة ، كما سنرى ذلك فى حينه بالتفصيل فى هذا الجزء من السلسلة .

وكذلك دخل الإسلام كثير من النوبيين وأهالى «السودان النيلي» و«دارفور» على يد دعاة وفدوا من «مصر» و«اليمن» و«الحجاز» من أمثال «غلام الله بن عائذ اليمنى» ، و«حمد أبى دنانة» من «الحجاز» ، والشيخ «محمد القناوى الأزهرى» من «مصر» ، وتلقف الدعوة وأذاعها سودانيون من أمثال الشيخ «محمود العركى» والشيخ «صغرون محمد بن سرحان العدوى» وغيرهم .

ووفد على منطقة القرن الإفريقى وساحل شرقى إفريقيا عدد كبير من الدعاة ، من أمثال «ود بن هشام المخزومى» الذى أقبل

«الهوسا» نجد داعية إسلاميا كبيراً هو الشيخ «محمد عبدالكريم المغيلى» المتوفى عام (٩٠٩هـ = ١٥٠٣م) الذى نشر الإسلام فى بلاد «الهوسا» ، ثم أتى بعده قرون داعية كبير من شعب الفولانى هو الشيخ «عثمان بن فودى» الذى أتم حركة نشر الإسلام فى هذه البلاد ، وخاصة «نيچيريا» و«الكامرون» .

وإذا اتجهنا شرقاً ووصلنا إلى بلاد حوض «بحيرة تشاد» حيث «دولة الكانم والبرنو» نجد داعية إسلاميا عظيماً هو الشيخ «محمد ابن مانى» الذى أسلم على يديه ملوك هذه البلاد فى القرن الحادى عشر للميلاد .





وكانت قوافل الجمال التي تحمل تجارة القارة لاستطيع العودة من هذه المناطق الداخلية إلى المناطق الساحلية في موسم الأمطار ، فكان التجار ينتظرون الشهر أو الشهرين يتاجرون ويحتكون بالأهالي ؛ مما كان يؤدي إلى إسلام الكثير منهم ، ثم يعودون من حيث أتوا حينما تحسن الأحوال الجوية ، هذا في الوقت الذي أصبح التجار المحليون المقيمون دائماً في بلدان القارة عمداً للدعوة الإسلامية .

إفريقيا ، كما انطلقوا من موانئ : «سواكن» و«باضع» (مصوع) و«زيلع» و«بربرة» و«مقديشو» و«مبسنة» و«مالندي» و«كلوة» و«سوفالة» ، وكلها موانئ تقع على الساحل الغربي لبحر الأحمر وعلى الساحل الشرقي لإفريقيا ، ونشط التجار في هذه المراكز التجارية كلها ووصل نشاطهم إلى أعماق القارة في بلاد «أوغندا» و«الكونغو» ، وأسلم على أيديهم أعداد كبيرة من الأفارقة .

ومدينة «تمبكت» التي بناها المرابطون من المغاربة على ضفة نهر «النيجر» أواخر القرن الخامس الهجري ، كذلك كانت مدن : «كانو» ، و«مالي» ، و«وجادو» ، و«نجيمي» في غرب القارة مراكز للدعوة والتجارة . وكانت مدينة «عيذاب» التي تقع على ساحل «البحر الأحمر» ، ومدينة «قوص» التي تقع على «نهر النيل» في صعيد «مصر» مراكز انطلق منها تجار الكارم إلى «الحبشة» وشرق

إذا ما استقر بهم المقام في إحدى هذه المدن ينشئون كتاتيب أو مدارس لتعليم الإسلام وتحفيظ القرآن الكريم ويننون المساجد التي كانت مقرا للدعوة إلى الإسلام ، وقاموا في الوقت نفسه بمزاولة نشاطهم التجاري ، وكانوا أثناء الليل يحولون دكاكينهم إلى مكان يتلقى فيه الأطفال الوثنيون مبادئ القراءة والكتابة على ضوء النيران ، مما حبيبهم إلى الأهالي الذين وثقوا بهم ، مما فتح الباب أمام الإسلام كي ينتشر بينهم . وكذلك وثق بهم رجال الطبقة الأرستقراطية من الملوك والأمراء ومشايخ القبائل ؛ حيث كان التجار المسلمون يُستقبلون في بلاط هؤلاء الملوك الوثنيين بترحاب شديد ؛ لسمو أخلاقهم وكريم خصالهم وخبرتهم بالسياسة وشئون الإدارة والمال ، ونظراً لأنهم كانوا يجلبون لهذه الطبقة ما كانت تحتاج إليه من



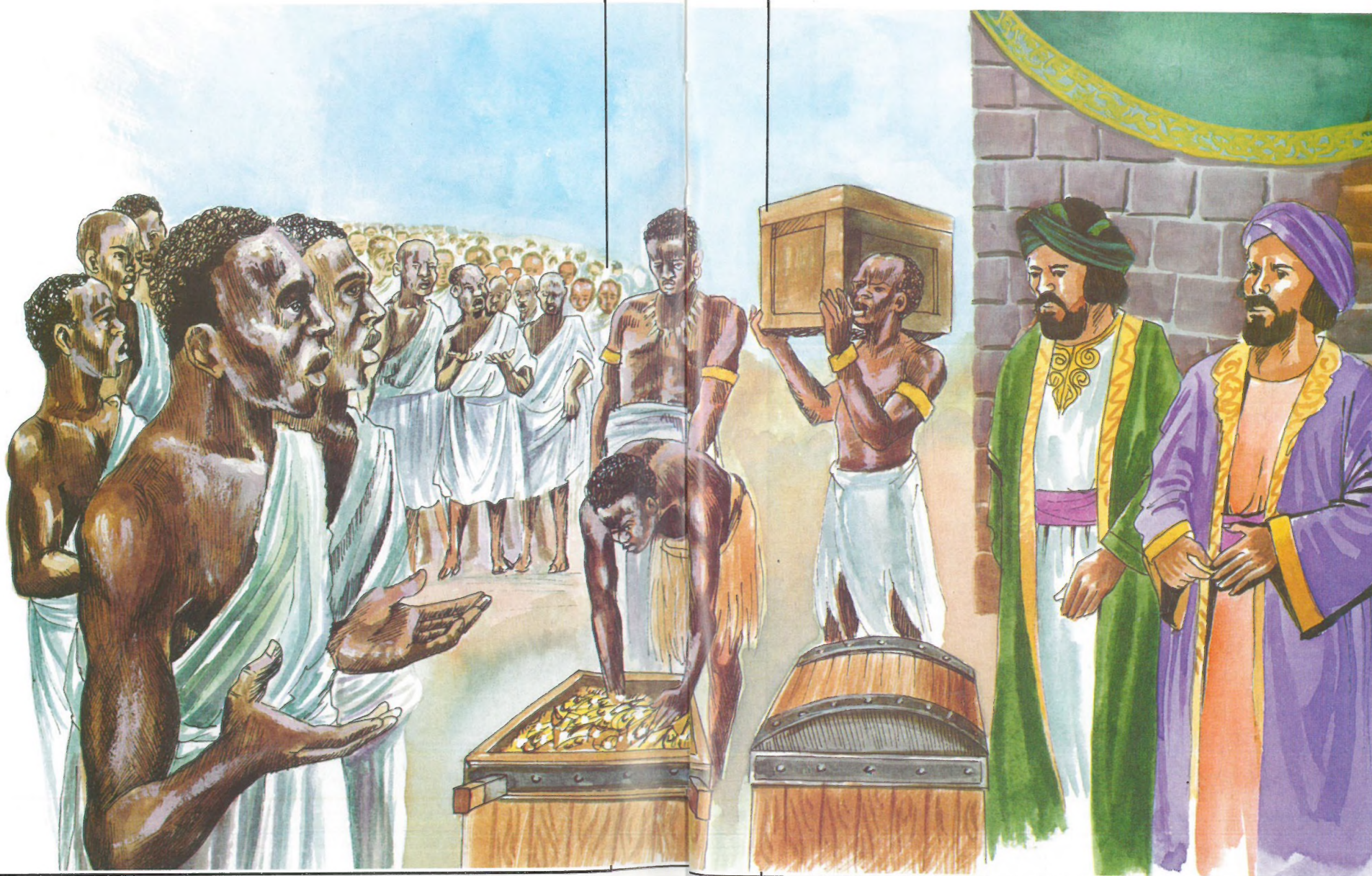
نتيجة للنشاط التجارى الواسع الذى أشرنا إليه والذى ساد شمال القارة ، ووسطها وغربها وشرقها وما نتج عنه من انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية ؛ نشطت قوافل الحج التى كانت فى الوقت نفسه قوافل للتجارة التى كان يمارسها الحجاج على طول طريقهم إلى الأراضى المقدسة ، وقوافل لتحصيل العلم عن طريق الالتقاء بعلماء البلدان التى يرون بها ، فكانت تخرج من غرب القارة قوافل عديدة على رأسها ملوك هذه البلدان ، الذين كانوا يحرصون على أداء هذه الفريضة رغم ما كانوا يتكبدونه من مشاق ومتاعب ، نظراً لطول الطريق ومخاطره ووعورته ، لكنهم كانوا يخرجون فى رحلة قد تستغرق عاماً أو عامين ويلتقون فى موسم الحج بإخوانهم المسلمين على اختلاف بلادهم وألسنتهم وألوانهم ، فيشعرون جميعاً بالأخوة الإسلامية ، ويشعر الإفريقى بانتمائه إلى عالم إسلامى واسع ، وبأخوته لمسلمى ذلك العالم ، فتتحطم الحواجز العرقية والقبلية واللغوية والاجتماعية ، ويصبح الجميع شعباً واحداً يتكلمون بعبارات واحدة ، ويتجهون إلى قبلة واحدة ، ومن ثم أصبح خروج المسلمين من غرب

إفريقيا ووسطها وشرقها جماعات وفرادى إلى الحج ، واتصالهم بالشعوب الإسلامية المختلفة فى بلاد الحجاز أو أثناء رحلة الذهاب والعودة تأكيداً لروح الأخوة الإسلامية التى فرضها الإسلام ، فيعود هؤلاء الأفارقة ممثلين بالحماسة لنشر هذا الدين ، ووقف جهودهم على إعلاء شأنه فى بلادهم وما جاورهم من البلاد الوثنية ، خاصة أن هؤلاء الحجاج كانوا يعودون محملين بالكتب الدينية التى تزيد من علم الأفارقة وثقافتهم كما كانوا يعودون أحياناً مصحوبين ببعض الدعاة والفقهاء والتجار من غير الأفارقة ، مما كان له أثره فى نشر الإسلام ، لاسيما وأنهم كانوا يقومون بإنشاء المدارس لتعليم اللغة العربية وتحفيظ القرآن الكريم ونشر الإسلام بين الوثنيين ، ونشر عقائده الصحيحة بين المسلمين الأفارقة .

وكان المسلمون الجدد من هؤلاء الأفارقة يرون ارتفاع المكانة الاجتماعية لإخوانهم وأقربائهم من الذين أدوا هذه الفريضة ، فيقدمونهم الآخرون عليها ، ولذلك تعددت قوافل الحج التى كانت تخرج من هذه البلدان ، والتى كانت تضم آلاف مؤلفة وعلى رأسها الملوك والحكام فى أحيان كثيرة . ومن أشهر الملوك الذين أدوا

هذه الفريضة من حكام إفريقيا «منسا موسى» سلطان «مالى الإسلامية» ، الذى خرج إلى الحج من هذا المكان النائى فى غرب القارة على رأس موكب كبير تحدث عنه المؤرخون ، وذلك فى عام (٧٢٣هـ = ١٣٢٣م) إذ كان موكبه يضم أكثر من عشرة آلاف حاج ، وكان يحمل معه كميات كبيرة من الذهب الخام ، أهدى منه إلى سلطان «مصر» وأمرائها وموظفيها ،

كذلك تحدثنا المصادر بأن ملوك «سلطنة صنغى الإسلامية» التى خلفت سلطنة «مالى» فى غرب إفريقيا قاموا بأداء هذه الفريضة ، ومن أشهرهم السلطان «أسكيا محمد الأول» فى عام (٤٩٥هـ = ١١٠١م) ، وقد أدى بعض سلاطين «الكانم» و«البرنو» الذين كانت دولتهم تقوم حول «بحيرة تشاد» الحج ثلاث مرات ، وبعضهم توفى أثناء الذهاب أو العودة ودفن فى «مصر» . وكان حكام بلاد «السودان النيلى» ، و«الصومال» و«الحبشة» وشرق إفريقيا بصفة عامة يؤدون هذه الفريضة فى سهولة ويسر ، نظراً لقربهم من بلاد «الحجاز» ، وكانوا يحرصون على ذكر لقب الحاج قبل أسمائهم مثلما كان يفعل إخوانهم فى شمال إفريقيا وغربها ، حتى السلاطين أنفسهم ؛ مما يدل على أهمية هذه الشعيرة لديهم ، وعلى أن تأثيرها فى نفوسهم كان قوياً ، ولذلك كانوا يعودون من هذه الرحلة ممثلين حماساً للإسلام ولنشره بين من لم يعتنقه من الوثنيين فى بلادهم وقراهم .



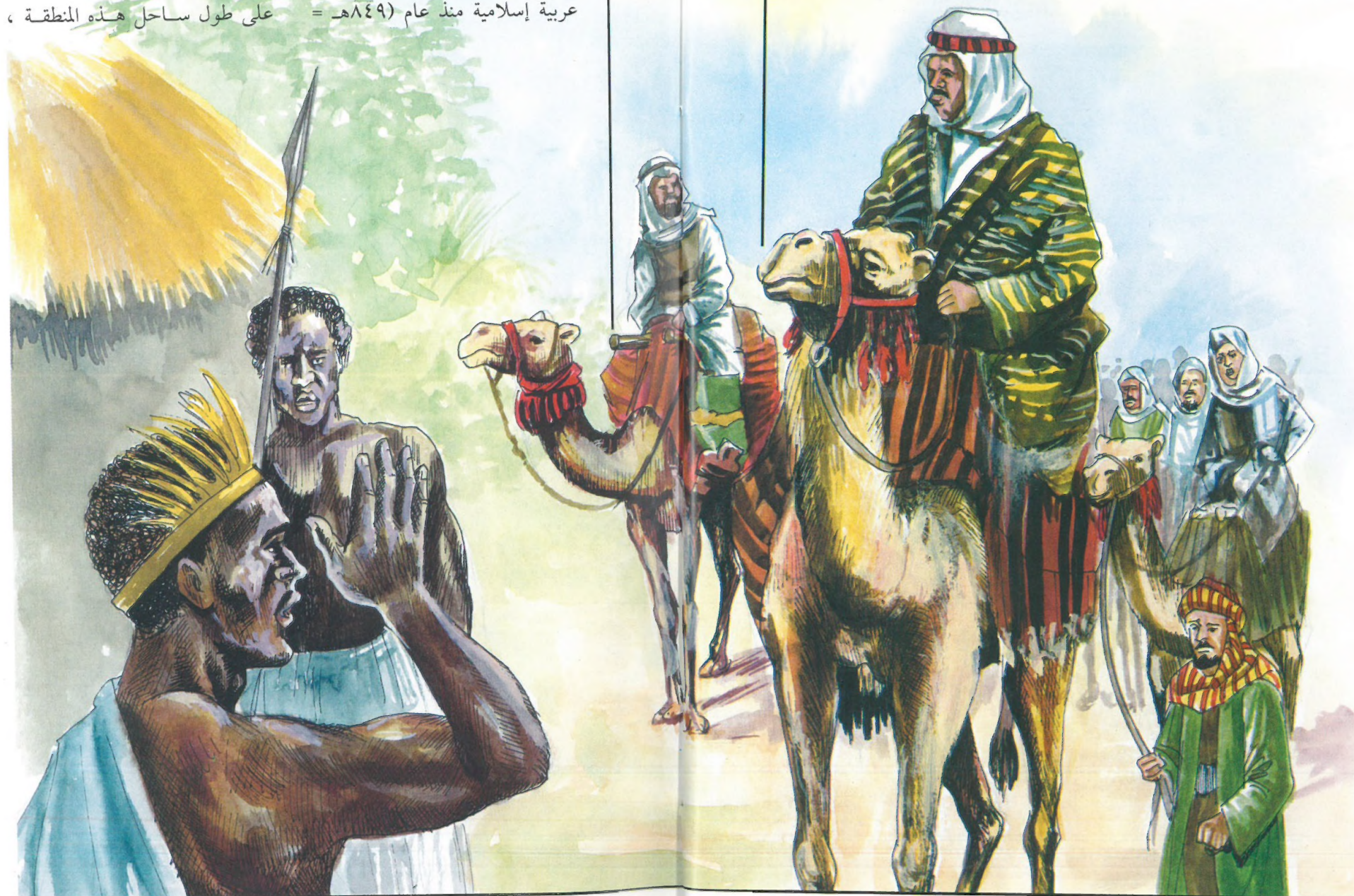
٤ - الهجرات :

كان لتحركات القبائل وهجراتها سواء أكانت عربية أم بربرية أم سودانية وزنجية دور كبير في نشر الإسلام وثقافته ، واللغة العربية وثقافتها في القارة الإفريقية .

ومن أهم هذه الهجرات هجرات العرب إلى بلدان القارة المختلفة ، وكانت «مصر» هي القاعدة والمنطلق الذي انطلقت منه هذه الهجرات العربية غرباً إلى شمال إفريقيا ، وبلاد «النوبة» و«السودان» ، فقد هاجرت جماعات عربية من «ريبعة» و«جهينة» و«بلى» إلى «أرض البجة» منذ منتصف القرن السابع للميلاد ، ونجحوا في نشر الإسلام بين الأهالي ، ودفعت شهرة «وادي العلاقي» الذي يقع في الصحراء الشرقية بين «أسوان» و«البحر الأحمر» بالذهب والزمرد إلى جذب جماعات كبيرة من «ريبعة» و«جهينة» منذ عام (٢٣٨هـ = ٨٥٢م) إلى هذه المنطقة ، حيث استقر العرب هناك وتزاوجوا مع «البجة» وأقاموا إمارة عربية مدت نفوذها إلى «أسوان» وشمال «بلاد النوبة» ؛ حيث صاهروا حكام مملكة «مقرة» النوبية المسيحية ، ونتج عن ذلك انتقال الحكم إلى هؤلاء العرب من الذين عرفوا باسم «بنى كنز» نسبة إلى لقب كان قد أطلقه أحد

الخلفاء الفاطميين في «مصر» على أحد أمرائهم نظير مساعدته لهذا الخليفة في القضاء على أحد الثائرين والخارجين على دولته في صعيد «مصر» . وتطورت أحوال «بنى كنز» هؤلاء حتى استطاعوا أن يقيموا دولة «بنى كنز» العربية في «بلاد النوبة» واتخذوا «دنقلة» عاصمة لهم منذ عام (٧٢٣هـ = ١٣٢٣م) .

وبقيام هذه الدولة انفتح باب الهجرة العربية على مصراعيه ، فهاجرت قبائل عربية كثيرة إلى وسط «السودان» ، وأقاموا بين نهري «النيل الأبيض» و«الأزرق» ، وتحالفوا مع قبائل سودانية تسمى «الفونج» ، واستطاعوا أن ينشئوا معاً دولة إسلامية أخرى هي دولة «الفونج» التي كانت عاصمتها «سنار» ، وذلك عام (٩١١هـ = ١٥٠٥م) .



كذلك هاجرت قبائل عربية كثيرة من «مصر» إلى مملكة «دارفور» الوثنية منذ القرن الحادي عشر للميلاد ، ووفدت إلى هذه المملكة هجرات عربية أخرى من «تونس» و«شمال إفريقيا» ، واختلط هؤلاء المهاجرون بالأهالي وصاهروا ملوك «دارفور» ، ونتج عن هذه المصاهرة انتقال الحكم إليهم ، فأصبحت «دارفور» سلطنة عربية إسلامية منذ عام (٨٤٩هـ =

كذلك تواصلت الهجرات العربية إلى بلاد «الزيلة» و«الحبشة» ، وهي المنطقة التي تعرف الآن باسم منطقة القرن الإفريقي . ومنها هجرة «ود بن هشام المخزومي» في عصر «عمر بن الخطاب» - رضى الله عنه - والتي أشرنا إليها من قبل ، وقد تبع ذلك هجرات عربية استقرت على طول ساحل هذه المنطقة ،

وأقامت في المدن الساحلية التجارية، مثل «سواكن» و«باضع» (مصوع) و«زيلة» و«بربرة» ، وانطلقت إلى الداخل وسكنت مع الأهالي واشتغلت بالتجارة والزراعة والرعى ، وازداد عددها حيناً بعد حين حتى تمكنت من إقامة سلطنات إسلامية ، مثل «سلطنة شوا» و«سلطنة أوفات» و«سلطنة عدل» الإسلامية .

وقد ازدادت هجرات العرب على ساحل شرق إفريقيا وأنشئوا مراكز تجارية بطول هذا الساحل ، حتى قال بعض المؤرخين إنهم أنشئوا ستاً وثلاثين مدينة ، بدءاً من «مقديشو» في «الصومال» وحتى «سوفالة» في جنوب نهر «الزمبيزي» في «موزمبيق» .

ومن أشهر هذه الهجرات هجرة «سليمان» و«سعيد» ابني «عباد بن عبد بن الجلندي» ، وكانا ملكين في «عمان» ، واضطرتهما ظروف القتال مع «الحجاج بن يوسف الثقفي» ، الذي أراد أن يفرض نفوذه على «عمان» بالقوة المسلحة ، إلى ترك وطنهما والاتجاه في سفن إلى ساحل شرق إفريقيا ؛ حيث وصلوا ومن معهما من رجال وجند وأهالي إلى جزر «أرخبيل لامو» التي تقع في



الإسلامية بين الصوماليين .

ولم تلبث أن وفدت هجرة أخرى إلى هذا المكان نفسه تعرف باسم هجرة الإخوة السبعة ، جاءت من «الأحساء» في عام (٢٩٢هـ = ٩٠٤م) ووصلت إلى ساحل «بنادر» بالصومال ، بعد أن ضاق بهم المقام في منطقة الخليج ؛ نتيجة لصراعات سياسية ومذهبية ، وكان هؤلاء الإخوة من قبيلة «الحارث» العربية ، ولما وصلوا إلى هذا الساحل استطاعوا أن يطردوا الزيدية إلى الداخل . وأن ينشئوا

مدينة «مقديشو» في عام (٢٩٥هـ = ٩٠٧م) ويتخذوها عاصمة لدولتهم التي أقاموها هناك ، والتي كانت تعرف باسم «سلطنة مقديشو الإسلامية» . وبذلك ظهر إلى الوجود مركز إسلامي كبير كان له أثره القوي في نشر الإسلام لا بين الصوماليين فحسب ، بل بين كثير من سكان شرق إفريقيا كله . وقد أعقب تلك الهجرة هجرة شيرازية فارسية أتت من «شيراز» بإيران ، كان على رأسها أمير يدعى «علي بن حسن بن علي

دولة «كينيا» الآن ، وذلك في الفترة (٧٥ - ٨٥هـ = ٦٩٤ - ٧٠٤م) ، واستقروا هناك وأنشئوا إمارة صغيرة كان لها أثرها في نشر الإسلام بين الأهالي الموجودين في تلك المنطقة .

كذلك هاجر بعض الشيعة الزيدية إثر مقتل إمامهم «زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب» - رضى الله عنهم أجمعين - في عام (١٢٢هـ = ٧٤١م) على يد الخليفة الأموي «هشام بن عبد الملك» ، فاضطر أتباعه بعد مقتله إلى الهجرة خوفاً من اضطهاد الحكام لهم ، فوصلوا إلى ساحل «بنادر» بالصومال ، وأقاموا هناك نحو مائتي عام أرسوا فيها قواعد الإسلام والثقافة

الشيرازي» ، وذلك في عام (٣٦٥هـ = ٩٧٥م) وذلك نتيجة خلافات وقعت بينه وبين إخوته في «شيراز» ، اضطرتهم إلى الهجرة هو وأتباعه ورجاله في سبع سفن ضخمة إلى شرق إفريقيا ؛ حيث استقر بهم المقام في جزيرة «كلوة» التي تتبع دولة «تنزانيا» الآن ، واستطاع أن يؤسس سلطنة إسلامية تسمى «كلوة» ، ظل يحكمها هو

وأحفاده نحو قرنين من الزمان حتى أتت هجرة عربية أخرى من «اليمن» من «بنى الحسن بن طالوت المهدي» ، وحكمت هذه السلطنة ، ومن ثم تغلبت الصبغة العربية فيها على الصبغة الشيرازية الفارسية واستمرت هذه السلطنة قائمة حتى جاء البرتغاليون وتغلبوا عليها في عام (٩١١هـ = ١٥٠٥م) .



ونتيجة لهذه الهجرات العربية المتتابعة انتشر الإسلام واللغة العربية بين السكان المحليين في منطقة «القرن الإفريقي» ، وفي منطقة الساحل الشرقي لإفريقيا ، وكذلك في الجزر المواجهة لهذا الساحل ، مثل «جزيرة زنجبار» ، و«جزر القمر» ، و«جزيرة مدغشقر» (مالاجاش الآن) وغيرها من الجزر ، وتكون عالم إسلامي واضح المعالم والقسمات ، نشأت فيه دول وسلطنات إسلامية ظلت موجودة حتى اصطدمت بالبرتغاليين والأحباش ، ثم بالاستعمار الأوروبي في العصر الحديث .

كذلك خرجت هجرات عربية من «مصر» في اتجاه الغرب إلى بلاد المغرب العربي منذ عصر الفتوحات الإسلامية في القرن الأول للهجرة ، وظلت هذه الهجرات تتتابع حتى القرن الخامس للهجرة ؛ حيث نزح من «مصر» إلى هناك «بنو هلال» و«بنو سليم» ، ولا شك أن الحكم العربي الإسلامي لهذه البلاد بالإضافة إلى هذه الهجرات قد أديا في النهاية إلى تعريب أهل البلاد الأصليين ، فانتشرت بينهم اللغة العربية وأصبحت لسانهم ، وغدت هذه البلاد بلداناً عربية إسلامية ، وقد انطلقت من هذه البلاد هجرات عربية لكنها كانت قليلة العدد قليلة

الأفراد ، اتجهت جنوباً إلى الصحراء الكبرى ومنها إلى حوض «نهر السنغال» و«النيجر» ، وحوض «بحيرة تشاد» مثل «بنى جدام» و«بنى حسان» و«بنى معقل» و«أولاد سليمان» و«جهينة» وغيرهم ، واستقرت هذه القبائل هناك ولا تزال توجد إلى الآن بعض هذه القبائل التى تحتفظ بأصولها العربية ، ولكن نظراً لقلّة هذه الهجرات وقلة عدد أفرادها فإنها لم تؤدّ إلى انتشار اللغة العربية بين الأهالى هناك ، وكانت لغة العلم والتعليم والتجارة والوثائق الرسمية للدولة فقط ، ولما جاء الاستعمار الأوروبى إلى هذه البلاد حارب هذه اللغة وحارب الإسلام بكل ما يستطيع من قوة ، ولا يزال يحاربه رغم الاستقلال .

وإذا كان العرب قد هاجروا إلى البلدان الإفريقية فى مختلف أنحاء القارة ، وكان لهم أثرهم الكبير فى نشر الإسلام ولغته وثقافته ، وكذلك فى إقامة سلطنات إسلامية ، فقد كان لهجرات البربر أثر كبير أيضاً فى هذه الميادين ، وخاصة «بربر صنهاجة» ، الذين كانوا يسكنون الصحراء الكبرى ، واستطاعوا نتيجة لجهود داعية



كما هاجرت قبائل من البربر منذ ما قبل الإسلام إلى حوض «بحيرة تشاد» وأقامت دولة تسمى «دولة الكانم والبرنو» ، ولم يلبث ملوك هذه الدولة أن اعتنقوا الإسلام فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد ، وظلوا يحكمون هذه البلاد وينشرون الإسلام فيها حتى القرن التاسع عشر .

كذلك كان لهجرات النوبيين والصوماليين والجلالا والأعفار والزنوج أثر كبير فى نشر الإسلام فى منطقة «القرن الإفريقى» ، وفى «ساحل شرق إفريقيا» ، وكانت هذه الهجرات وراء توسع السلطنات الإسلامية التى قامت فى هذه المنطقة ، وساعدتها فى رد عدوان الأحباش على المسلمين فى منطقة «القرن الإفريقى» وخاصة فى القرن السادس عشر الميلادى .

٥ - الطرق الصوفية :

ارتبط نشاط الدعوة إلى الإسلام لاسيما فى غرب إفريقيا وشرقها بانتشار الطرق الصوفية ، وخاصة بين المشتغلين بالتجارة ، وكانت هذه الطرق قد بزغ نجمها فى الأفق منذ أن تعرض العالم الإسلامى لخطر الاستعمار الأوروبى الحديث بدءاً من القرن السادس عشر الميلادى ، واستطاعت الطرق الصوفية أن تسهم إسهاماً كبيراً فى الدعوة إلى مقاومة الاستعمار ، وكذلك فى الدعوة إلى الوحدة

السنوسية على يد الفقيه الجزائرى «محمد بن على السنوسى» ، الذى استطاع أن يقيم دولة دينية فى الأراضى الليبية ، دون أن يريق قطرة دم واحدة ، وتمكنت هذه الطريقة من خلال أتباعها وزواياها التى انتشرت فى إفريقيا جنوب الصحراء أن تنشر الإسلام بين العديد من القبائل الإفريقية الوثنية ، مثل قبيلة «بيلي» التى كانت تسكن منطقة «إندى» شرق «بوركو» فى شمال «نيجيريا» ، وعمقت الإسلام بين جماعات «التدّا» فى شمال «بحيرة تشاد» .



أحد الآثار الفنية الإفريقية (مالى)

وكان للسنوسيين فضل كبير فى نشر الإسلام فى «وادى» ، التى تقع شرق «بحيرة تشاد» ، وبين قبائل «الجلالا» فى «الحبشة» ؛ حيث كانوا يشتررون العبيد أو الأطفال ثم يحررونهم ويرسلونهم إلى مركز الطريقة الرئيسى فى «واحة جغبوب» فى الصحراء الكبرى بين «مصر» و«ليبيا» ، فيتعلمون ثم يعودون إلى بلادهم دعاة للإسلام .

كذلك كان لأتباع «الطريقة القادرية» التى انتشرت فى شمال إفريقيا وغربها أثر كبير فى نشر الإسلام فى هذه البلاد ، فقد اتخذ أتباعها من مدينة «ولاتة» بموريتانيا أول مركز لهم فى تلك البلاد منذ القرن الخامس عشر الميلادى ثم لجئوا إلى «تمبكت» ، وانتشر أتباعهم ودعاتهم فى أنحاء «السودان الغربى»

الدينية ، وفى نشر الإسلام بين من لم يعتنقه ، ونتيجة لذلك جذبت هذه الطرق إليها كثيراً من الشباب الأفارقة .

ففى شرق إفريقيا وبلاد «سودان وادى النيل» ظهرت «الطريقة الميرغنية» فى القرن التاسع عشر للميلاد والتى كان لها تأثيرها الكبير على الناس هناك ، وكانت قد ظهرت قبلها بعدة قرون «الطريقة القادرية والشاذلية والرفاعية» ، وانتشر أتباع هذه الطرق على طول الساحل الشرقى لإفريقيا ، وفى الجزر المواجهة له وكذلك فى المناطق الداخلية .

وفى سنة (١٢٥٣هـ = ١٨٣٧م) ظهرت فى شمال إفريقيا الطريقة

وكذلك في منطقة «القرن الإفريقي» وساحل «شرق إفريقيا»، ووصل أتباعها في الداخل حتى «الكونغو»، وكان أتباع هذه الطريقة يقومون بتأسيس المدارس لتعليم الدين ونشر الإسلام، ويرسلون نوابغ الطلاب إلى مدارس «القيروان» و«تونس» و«فاس» و«الأزهر»، وغيرها، فإذا ما أتموا دراستهم عادوا إلى أوطانهم دعاة للإسلام.

ومن الطرق الأخرى التي انتشرت في القارة «الطريقة التيجانية» التي أنشأها «أبو العباس أحمد بن محمد المختار بن سالم التيجاني» المتوفى عام (١٢٣١هـ = ١٨١٥م)، وقد قام أتباعه بنشر هذه الطريقة بين رجال القوافل والتجار، فانتشرت تعاليمها في حوض «السنغال» وفي «تمبكت» وفي سائر أنحاء غرب إفريقيا، وظهرت هذه الطريقة أيضاً في «السودان النيلي» وشرق إفريقيا على يد بعض التيجانية القادمين من غرب إفريقيا. وقد انخرط في سلك هذه الطريقة عليه القوم في «الحبشة»، مثل سلطان «جمة» «أبوجفار»، و«الرأس على» نائب الإمبراطور الحبشي، وعمل هذان الرجلان على نشر الإسلام بين الوثنيين من الأحباش، ونجحاً في ذلك نجاحاً عظيماً فتحول معظم سكان الولايات الوسطى والشمالية في «الحبشة» إلى الإسلام.



٦ - طبيعة الإسلام :

ذلك أن الإسلام لم يُفرض كما رأينا على الشعوب الوثنية الإفريقية فرضاً، إنما حمله قوم من أهل إفريقيا نفسها، اتخذوا صفة التجار أو المعلمين أو الدعاة أو الصوفية، فليس غريباً أن يلقي قبولاً منهم، فهو في نظرهم دين إفريقي غير دخيل، والدعوة إليه تتم بالطرق السلمية وليس بالغزو المسلح كما فعل الاستعمار الأوربي في العصر الحديث.

كما أن الإسلام لم يستعبد هذه الشعوب، إنما أشعرها بالعزة والكرامة، فخلق منها دولا كبرى وقوى فيها النزعة إلى الحرية والاستقلال، ولم يقض على نظمها المحلية بل تواءم معها وخلق منها ومن تقاليد تقاليد إسلامية الطابع إفريقية الروح.

ومن ثم تقبله الأفارقة، خاصة أن الإسلام لم يكن ديناً أخروياً فحسب، وإنما كان ديناً وحضارة تقوم على أساس تعمير الدنيا والفوز بالآخرة، ومن ثم لزم أن ينشر الإسلام نور العلم والثقافة بين أتباعه ومعتقيه، فارتبط الإسلام بالعلم والتعليم منذ البداية، وكان الإفريقي لا يكاد يسلم حتى يتعلم القراءة والكتابة ويرتفع قدره اجتماعياً كلما زادت ثقافته، ولذلك سمعنا عن عدد كبير من العلماء الأفارقة الذين ظهوروا في مختلف ميادين العلم والثقافة، ولم يكونوا في ذلك أقل من إخوانهم علماء المغاربة أو المشاركة، زد على ذلك أن الإسلام لم يعترف بالتفرقة العنصرية، فهو لا يعرف حواجز الطبقات أو العرق أو اللون، ولا يميز بين إنسان وآخر على أساس اللون أو الثروة، لأن معيار التفاضل في الإسلام هو التقوى والعمل الصالح، ولذلك أقبل الأفارقة على اعتناقه، فوحد بينهم وقضى على عناصر الفرقة والتشردم، كما وحد بينهم لغوياً؛ إذ انتشرت اللغة العربية بين كثير من شعوب القارة، وصارت هي أداة الفكر والعلم والمخاطبة، أما الشعوب التي احتفظت بلغاتها، فقد كانت العربية هي وسيلة العلم والتعامل كما كانت اللغة الرسمية، لأن اللغات الإفريقية لم تكن لغات مكتوبة.

وكما وحد الإسلام بينهم دينياً وحد بينهم سياسياً وقضى على التشردم القبلي والنزاعات القبلية، وأنشأ دولا كبرى، بل إمبراطوريات عظيمة مثل «إمبراطورية مالي»، التي ضمت معظم منطقة غرب إفريقيا بالكامل، وكانت مساحتها تفوق مساحة دول غرب أوربا مجتمعة، ليس هذا فحسب بل إن الإسلام جعل الإفريقي يشعر بانتمائه ليس إلى بلاده فقط بل إلى عالم إسلامي واسع، يستطيع أن ينتقل بين أرجائه سواء كان تاجراً

أو حاجاً أو طالب علم، وفي كل مكان يجد هذا الإفريقي القوت والمأوى والمساعدة والاستقبال الودود، على أساس من أخوة الإسلام التي جمعت بين أفراد هذا العالم الإسلامي الواسع، الذي يمتد من الصين شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً، ومن هنا اعتبر الأفارقة الإسلام ديناً إفريقيا قام بنشره بينهم قوم منهم، اتخذوا الدعوة أو التجارة أو التصوف وسيلة إلى ذلك، وطبقوا مبادئ الإسلام السمحة وأخلاقه الحميدة

وقيمه السامية من إخاء ومساواة وتكافل وتعاون، ومن ثم انتشر الإسلام في هذه البقاع الواسعة في القارة، حتى إنه يمكن القول بأن قارة إفريقيا هي القارة المسلمة الوحيدة في عالم اليوم، على اعتبار أن غالبية سكانها يعتنقون الإسلام. ويتبين ذلك بوضوح من خلال حديثنا عن السلطنات والممالك الإسلامية التي قامت بالقارة (جنوب الصحراء) في العصور الوسطى.



الإسلام والدول الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء

أولاً : الإسلام والدول الإسلامية في غرب إفريقيا :

يقتضى الحديث عن الإسلام والدول الإسلامية التي قامت في بلدان غرب إفريقيا ، التي كانت تعرف ببلاد «السودان الغربي» ؛ أن نبدأ بإعطاء نبذة عاجلة عن انتشاره أولاً بين بربر الصحراء الكبرى ، الذين كانوا يعرفون باسم «الطوارق» أو «الملثمين» أو «الصنهاجيين» ، فهذه القبائل هي التي قامت بجهد كبير في نشر الإسلام في بلاد «السودان الغربي» .

وقد انتشر الإسلام في البداية في شمال إفريقيا ؛ بحيث لم يأت القرن الثاني الهجري حتى كانت «بلاد المغرب» قطراً إسلامياً خالصاً وكانت الصحراء الكبرى تحدها «بلاد المغرب» من ناحية الجنوب ، ويسكنها قبائل «الطوارق» أو «الملثمين» ، ويلى هذه الصحراء «بلاد السودان الغربي» ، التي كانت بها دولة وثنية تعرف بدولة «غانة» ، وهي من أقدم الدول التي ظهرت في هذه البقعة النائية من إفريقيا ، ولكي يصل الإسلام إلى غرب إفريقيا كان لابد أن ينتشر أولاً بين قبائل «الطوارق» ، ثم يتسرب من خلالها إلى دولة «غانة» الوثنية ، وقد بدأت المحاولات الأولى لنشر الإسلام بين ديار «الملثمين» في ولاية «عقبة بن نافع الفهري» الثانية (٦٠ - ٦٣هـ) في عهد «بنو أمية» ؛ إذ استطاع هذا القائد أن يتدفق بقواته إلى «المغرب الأقصى» ، ثم هبط جنوباً إلى «إقليم السوس الأدنى» ، ثم واصل تقدمه حتى وصل إلى



مدينة «ماسه» بالسوس الأقصى ، وأشرف على مدينة «أغمات» ، وتوغل في بلاد «الملثمين» (مسوفة وملتونة وجدالة) حتى وصل إلى مدينة «تارودنت» ، وتذكر بعض الروايات أنه وصل إلى بلاد «غانة» و«التكرور» .

كان «عقبة» أول من دعا «الملثمين» إلى الإسلام كأول عربي مسلم يرتاد هذه الأقاليم ، ولما جاء «موسى بن نصير» فاتح «الأندلس» أتم ما بدأه «عقبة» ، فقد وصل إلى مواطن «الملثمين» ، ودعاهم إلى الإسلام وأنشأ مسجداً في مدينة «أغمات» التي غدت من أهم مراكز الإسلام وثقافته في «المغرب الأقصى» .

وعندما قامت «دولة الأدارسة» في «المغرب الأقصى» (١٧٢ - ٣٧٣هـ = ٧٨٨ - ٩٨٣م) وحدوا «صنهاجة» ووجهوا أنظارهم إلى



نشر الإسلام فكانوا أشبه بالدعاة منهم بالولاة ، فانتشر الإسلام في إقليم «الواحات» بعد أن أصبحت مضارب «الملثمين» القريبة من جبال «أطلس» (تعرف بجبال درن) خاضعة للأدارسة وجزءاً من أملاكهم ، وقد أدى إسلام قبائل «الملثمين» في القرن الثالث الهجري ، إلى قيام حلف قوى جمع بين قبائل «صنهاجة» (ملتونة وجدالة ومسوفة) بزعماء «ملتونة» ، وكان هذا الحلف يشير إلى موجة من التوسع صوب الجنوب ؛ لنشر الإسلام بين القبائل الزنكية بالسودان الغربي .

مسجد عقبة بن نافع
(القيروان)





القسم الأكبر من مملكة «غانة» تاشفين بلاد «المغرب الأقصى» ، وأن يعود هو إلى الصحراء مؤثراً وحدة الصف ، متجنباً سفك الدماء ، وكرس كل جهوده للتوسع في بلاد «السودان» ونشر الإسلام بين قبائله ، وكان هدفه هذه المرة هو إسقاط إمبراطورية «غانة» الوثنية التي أصبحت دولة «غانة» الإسلامية فيما بعد .

لهذا كله رحل «ابن ياسين» إلى بلاد «السودان الغربي» وأقام رباطاً أو رابطة هناك في أحد الأودية على حافة الصحراء الجنوبية قرب مضارب «لتونة» ، ناحية مصب «نهر السنغال» وتبعه كثير من الذين آمنوا بدعوته ، ولما ازدادت قوته قام يجاهد قبائل البربر ويدعوهم إلى تنفيذ تعاليم الإسلام الحقّة ومعه «يحيى بن عمر» وأخوه «أبو بكر بن عمر اللمتوني» ، لكن «يحيى» استشهد عام (٤٤٨هـ = ١٠٥٦م) ، فأخذ «ابن ياسين» البيعة لأخيه «أبي بكر» وأقامه مكانه ، وتوجّه لقتال «برغواطة» عام (٤٥١هـ = ١٠٥٩م) حيث استشهد «ابن ياسين» من جراح أصابته .

وبعد أن فرغ «أبو بكر» من السيطرة على قبائل «الملثمين» وأعاد الأمن إلى الصحراء رأى أن يوجه جهوده لمحاربة الوثنيين في بلاد السودان الغربي .

وكان «ابن ياسين» قد انتزع مدينة «أودغشت» من ملك «غانة» بل وجاوزها إلى ناحية الجنوب فاتخذها الأمير «أبو بكر» مركزاً له في جهاده ضد ملك «غانة» ، وبعد جهاد دام أكثر من خمس عشرة سنة استولى «أبو بكر» على

دولته على دعوة دينية إصلاحية رائدها فقيه مغربي مالكي يدعى «عبدالله بن ياسين» فامتد بذلك نفوذ المذهب المالكي من «القيروان» إلى «المغرب الأقصى» ثم تخطى حدود هذا الإقليم نحو الجنوب وانتشر في بلاد «السودان الغربي» . وبعد موت الأمير «يحيى بن إبراهيم» أصبح «عبدالله بن ياسين» بلا معين ، وفقد الحماية التي كان يسطرها عليه زعيم «جدالة» ورئيس الحلف الصنهاجي ، وأصبح وجوده غير مرغوب فيه ، لتشدده في تنفيذ التعاليم الإسلامية ، ولاختياره «يحيى بن عمر اللمتوني» خلفاً ليحيى بن إبراهيم الجدالي ، فنقل الزعامة بذلك من «جدالة» إلى «لتونة» .



(١٠٣٥م) بزعمته الأمير «أبي عبدالله بن يتفاوت اللمتوني» ، الذي استأنف الجهاد وحارب «غانة» وقبائل من «السودان» ، لكنه استشهد في موقعة «غارة» بالقرب من مدينة «تاتكلاتين» عام (٤٢٩هـ = ١٠٣٨م) بعد ثلاث سنوات من حكمه ، وبذلك أخفق «الملثمون» في استعادة «أودغشت» والسيطرة عليها مرة أخرى . وكان من نتيجة هذه الهزيمة أن تخلّت «لتونة» عن زعامة «الملثمين» وخلفتها في الزعامة قبيلة «جدالة» في شخص «يحيى بن إبراهيم الجدالي» الذي اتبع طريقة أسلافه في الجهاد داخل بلاد «السودان الغربي» لنشر الإسلام ، وأسس

فقد استطاع «تيولوتان» زعيم هذا الحلف أن يحمل راية الجهاد ، ودان له معظم ملوك «السودان الغربي» ، واستولى على مدينة «أودغشت» ، التي كانت محطة رئيسية لقوافل الصحراء ، واتخذها عاصمة له بعد أن خلصها من يد ملك «غانة» الوثني .

توفي «تيولوتان» عام (٢٢٢هـ = ٨٣٦م) وتفرق الحلف الصنهاجي أثناء حكم أحفاده عام (٣٠٦هـ = ٩١٨م) واستطاعت مملكة «غانة» أن تستعيد مدينة «أودغشت» ، واحتفظت تلك المملكة بقوتها كأعظم ما تكون في «السودان الغربي» ، حتى قام الحلف الصنهاجي الثاني عام (٤٢٦هـ =

١ - دولة غانة الإسلامية

[٤٦٩ - ٦٠٠ هـ = ١٠٧٦ - ١٢٠٣ م]

«غانة» التي نقصدها بهذا الحديث ليست هي «غانا» التي تقع اليوم في أقصى الجنوب من غرب إفريقيا وعاصمتها «أكرا» وإنما هي التي تقع بين منحني «النيجر» و«نهر السنغال» ، وتضرب حدودها في جنوبي «موريتانيا» الحالية ، وكانت عاصمتها مدينة تُسمى «كومبي» وتقع على بعد (٢٠٠) ميل شمال «باماكو» عاصمة دولة «مالي» الحالية .



وكانت غانة القديمة متسعة النفوذ والسلطان حتى قيل عنها : إنها كانت إمبراطورية خضع لها معظم بلاد «السودان الغربي» في النصف الأول من العصور الوسطى . وتعد هذه الدولة أو الإمبراطورية من أقدم ممالك غربى إفريقيا شمال نطاق الغابات ، ويرجع تاريخ نشأتها إلى الفترة ما بين القرن الثالث والرابع الميلاديين ، ويبدو أن كلمة «غانة» كانت لقباً يطلق على ملوكهم ، ثم اتسع مدلول هذا الاسم حتى أصبح يطلق على العاصمة والإمبراطورية . وقد قامت هذه الدولة على يد جماعة من البيض وفدوا من الشمال ، وكان أول ملوكهم المدعو «كازا» قد اتخذ مدينة «أوكار» قرب «تمبكت» الحالية عاصمة له ، وكان الشعب يتكون من قبائل «السوننك» ، وهي أحد فروع شعب «الماندى» الذى يسكن معظم نواحي غرب إفريقيا . واستطاعت هذه الدولة منذ أواخر القرن الثامن الميلادى ، وبعد

أن انتقل الحكم إلى فرع «السوننكى» - أن تخضع بلاد «فوتا» حيث التكرور والولوف والسيرير ، ووصل هذا التوسع إلى نهايته القصوى فى مستهل القرن الحادى عشر للميلاد ، فأصبحت «غانة» تسيطر على المسافات الممتدة من أعالي «نهر السنغال» وأعالي «نهر النيجر» ، وامتد نفوذها إلى موقع «تمبكت» شرقاً وبلاد «التكرور» أو «السنغال» غرباً ، وينابيع نهر «النيجر» جنوباً ، وأغلب الصحراء الغربية

(موريتانيا حالياً) شمالاً ، وانتقلت عاصمتها إلى مدينة «كومبي» أو «كومبي صالح» وهى نفسها مدينة «غانة» . وقد اعتمدت إمبراطورية «غانة» على التجارة كمصدر رئيسى فى اقتصادها خاصة تجارة الذهب ، حتى صارت تعرف ببلاد الذهب ، وأصبح ملوك «غانة» من أغنى ملوك الأرض ؛ بفضل سيطرتهم على الطرق المؤدية إلى مناجم الذهب والتي كانت تقع فى منطقة «وانقارة» أو «وانجارة» جنوبى مملكة «غانة» . وقد أدى رواج التجارة إلى أن أصبحت «غانة» (العاصمة «كومبي صالح») أكبر أسواق بلاد «السودان» ، ودخل الإسلام إليها سلمياً عن طريق التجار والدعاة المسلمين ، ويتبين هذا من رواية «البكرى» الذى زار هذه البلاد فى عام (٤٦٠ هـ = ١٠٦٨ م) ، وذكر أن مدينة «غانة» مدينتان يحيطهما سور ، احدهما للمسلمين وبها اثنا عشر مسجداً ، يُعِين لها الأئمة والمؤذنون ، والقضاة ، أما المدينة الأخرى ، فهى مدينة الملك وتسمى بالغابة ، وبها قصر الملك ومسجد يصلى فيه من يَفدُ عليه من المسلمين . ويضيف «البكرى» أن مترجمى الملك وصاحب بيت ماله وأكثر وزرائه كانوا من المسلمين ، وهذا يدل على أن الإسلام قد انتشر بين زنوج غربى إفريقيا لدرجة أن شعب «التكرور» بأكمله أسلم على يد الملك «وارجابى بن رابيس» الذى توفي عام (٤٣٢ هـ = ١٠٤٠ م) ، كذلك امتد الإسلام إلى مدينة «سلى» التى تقع بين «التكرور» و«غانة» ، وإلى مدينة «غيارو» التى تبعد عن مدينة «غانة» مسيرة (١٨) يوماً .



ويتحدث «البكرى» عن مملكة أخرى هي مملكة «ملل» ويقصد بها مملكة «مالي» التي تقع جنوبي مملكة «غانة» ، ويقول: إن ملكها يعرف بالمسلماني لأنه أعلن إسلامه على يد أحد الفقهاء المسلمين الذي خرج معه للاستسقاء بعد أن أجذبت البلاد وكاد الناس يهلكون، ولما استجاب الله وهطل المطر أمر الملك بتحطيم الدكاكير (أى الأصنام) ، وأخرج السحرة من بلاده ، وأسلم هو وأهله وخاصته وحسن إسلامهم، على الرغم من أن أغلب أهل مملكته كانوا وثنيين .

ويتحدث «البكرى» أيضاً عن مدن أخرى أهلها مسلمون مثل مدينة «كوغمة» ومدينة «الوكن» ومدينة «كوكو» عند انحناء «نهر النيجر» تجاه بلاد «الهوسا» ، والمدينة الأخيرة مدينتان ، مدينة الملك ومدينة المسلمين ، ويبدو أن ملكهم كان مسلماً ، بدليل ما يذكره «البكرى» من أن ملكهم كان يتسلم عند تنصيبه خاتماً وسيفاً ومصحفاً ، يزعمون أن أمير المؤمنين بعثها إليه . ويصرح «البكرى» في نهاية حديثه بأن

ملكهم مسلم ولا يتولى العرش أحد من غير المسلمين . وحتى يسير الإسلام فى مجراه الطبيعى ويستقر بين هذه الشعوب التى آمنت به ، وحتى ينتهى دور «غانة» فى مناهضة الإسلام والاعتداء على القبائل المسلمة كان الهدف الأساسى الذى كرس له الأمير «أبو بكر بن عمر اللمتوني» زعيم «الملثمين» جهوده هو الاستيلاء على «غانة» وإخضاعها للدولة المرابطين التى أقامها هؤلاء «الملثمون» من قبائل صنهاجة .



وعلى الرغم من أن أغلب المصادر تغفل تفاصيل جهاد هذا الأمير فى بلاد «السودان الغربى» فإننا نعرف أنه استطاع أن يفتح مملكة «غانة» ، وأن يستولى على العاصمة عام (٤٦٩هـ = ١٠٧٦م) ويسقط الحكومة الغانية الوثنية . ومنذ ذلك الوقت يمكن أن يؤرخ لإمبراطورية «غانة» الإسلامية حتى اختفائها من التاريخ فى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى . فقد أضحت حكومتها إسلامية ، ويقال إن ملكها اعتنق الإسلام بدليل أن المرابطين تركوه فى الحكم بعد أن أعلن الخضوع ودفع الخراج لهم . وبإسلام هذا الملك دخل عدد كبير من سكان المملكة فى الإسلام .

ولم تستمر سيطرة المرابطين على «غانة» ؛ إذ سرعان ما تخلّصت من هذه السيادة على أثر اغتيال الأمير «أبى بكر» أمير المرابطين عام (٤٨٠هـ = ١٠٨٧م) على يد أتباع أحد زعماء قبائل «الموسى» بجنوب «داهومى» وانتهزت بلاد «السودان الغربى» هذه الفرصة وما تبعها من اضطراب الجيوش المرابطية هناك بعد موت قائدها فأعلنت «غانة» استقلالها وانفصالها عن الدولة المرابطية ، ونقضت تبعيتها لها ، وفى الوقت نفسه استطاعت بعض الولايات التى كانت تابعة لإمبراطورية «غانة» أن تنفصل هى

الأخرى وتستقل فى حكمها ، مثل مملكة «أنبارة» وولاية «ديارا» و«كانياجا» ، وأصبحت ممالك مستقلة ، بينما أصبحت سلطة ملوك «غانة» لا تتعدى «أوكار» و«باسيكورو» مما أضعف الدولة ومهد للقضاء عليها .

ومعنى ذلك أن فتح المرابطين لغانة لم يقض عليها تاريخياً ، ولكنه حولها إلى الإسلام ، وجاءت الصدمة القاضية على الوجود التاريخى لإمبراطورية «غانة» على يد قبائل «الصوصو» الوثنية التى استقلت بولاية «كانياجا» كما سبق القول ، وكانوا من قبل يدفعون الجزية لحكومة «غانة» لفترة طويلة . وفى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى استولى أعظم أباطرة «الصوصو» وهو «سومانجورو» على العاصمة «كومبى صالح» فى عام (٦٠٠هـ = ١٢٠٣م) بعد معركة طاحنة مع ملك «غانة» الإسلامية .

وبذلك أنهى «الصوصو» سيادة الملوك الغانيين المسلمين فتفرقوا فى البلاد ، وقام زعيم «الصوصو» بالاتجاه نحو الجنوب ؛ حيث توجد دولة «الماندنجو» النامية فى «كانجابا» واستولى عليها ولكن أحد أبناء ملك «كانجابا» ويسمى «سندياتا» أو «مارى جاطه» نجح فى استرداد الأراضى التى ضاعت من أبيه، بل واستطاع أن يقضى على «سومانجورو» نفسه وأن يضم جميع

أملاك «الصوصو» إليه . وذلك بعد موقعة حربية فاصلة (٦٣٢هـ = ١٢٣٥م) ، وفى عام (٦٣٨هـ = ١٢٤٠م) نجح «مارى جاطه» فى تدمير مابقى من «كومبى صالح» عاصمة «غانة» ، وكان ذلك هو الفصل الختامى فى اختفاء إمبراطورية «غانة» من مسرح التاريخ .

وعلى الرغم من أن «غانة» الإسلامية لم تعمّر طويلاً فإن أهلها وأغلبهم من «السونك» اشتهروا بحماسهم للإسلام وبال دعوة إليه، حتى إن بعض العشائر السوننكية تكاد تختص بالعمل فى الدعوة إلى الإسلام ، بل إن كلمة «سونك» فى أعلى نهر «غمبيا» استخدمها «الماندنجو» الوثنيون مرادفة لكلمة «داعية» ، مما يدل على الدور الكبير الذى نهض به «السونك» فى نشر الإسلام .

ويبدو أن هذه الدفعة التى دفعها المرابطون للإسلام كانت من القوة بحيث تركت فى تاريخ الإسلام فى غربى إفريقيا آثاراً عميقة ، ذلك أن دعاة المرابطين نشروا الإسلام فى المنطقة الواقعة بين «السنغال» و«النيجر» وعلى ضفاف «السنغال» ، وتمخض ذلك عن إسلام شعب «التكرور» الذى عمل بدوره على متابعة الدعوة إلى هذا الدين الخفيف بين قبائل «الولوف» و«الفولبة» (الفولاني) و«الماندنجو» .

سلطنة مالي الإسلامية

[٥٩٦ - ٨٧٤ هـ = ١٢٠٠ - ١٤٦٩ م]

أسس هذه السلطنة شعب زنجي أصيل هو شعب «الماندنجو» و «الماندنجو» معناها «المتكلمون بلغة الماندى» ، ويطلق «الفولاني» على هذا الشعب اسم «مالي» ، ويلقبه المؤرخون العرب بلقب «مليل» أو «ملل» ، وتقع سلطنة «مالي» بين بلاد «برنو» شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً وجبال البرير شمالاً و«فوتاجالون» جنوباً .



الإسلام ، وأنشأوا دُويلة صغيرة انفصلت عن مملكة «غانة» ، وظفرت بنوع من الاستقلال الذاتي ، مستغلة الصراع الذى نشب بين المرابطين ومملكة «غانة» واستطاع ملوك «كانجبابا» أن يوسعوا مملكتهم فى أوائل القرن الثالث عشر فى اتجاه الجنوب والجنوب الشرقى ، مما أثار حفيظة ملك «الصوصو» ، الذى أخذ يعمل للسيطرة على مملكة «كانجبابا» الناشئة وكادت جهوده تكمل بالنجاح ، بعد أن استطاع

٣ - «غانة» ، ويقع شمال «مالي» ويمتد إلى المحيط الأطلسي .
٤ - «كوكو» ، ويقع شرق إقليم «مالي» .
٥ - «تكرور» ، ويقع غرب «مالي» حول «نهر السنغال» .
ولا يعرف إلا القليل عن نشأة مملكة «مالي» ويتلخص فى أنه فى نحو منتصف القرن الحادى عشر الميلادى تقريباً اعتنق ملوك «الماندنجو» فى «كانجبابا» (مالي)

وقد اشتهرت باسم بلاد «التكرور» وهى أحد أقاليمها الخمسة التى اشتملت عليها المملكة زمن قوتها وازدهارها ، وكان كل إقليم منها عبارة عن مملكة مستقلة استقلالاً ذاتياً ، لكنها تخضع لسلطان «مالي» ، وهذه الأقاليم الخمسة حسبما ذكرها «القلقشندي» :
١ - «مالي» ، ويتوسط أقاليم المملكة .
٢ - «صوصو» ، ويقع إلى الجنوب من «مالي» .

تاريخ الدول والممالك الإسلامية التى قامت فى غرب إفريقيا فى العصور الوسطى .
وفى هذا الدور انتقلت السلطة إلى أهل البلاد الأصليين الذين دخلوا الإسلام وتشربوا من ثقافته واقتبسوا من نظمه ، وهو التطور نفسه الذى حدث فى «المغرب» حينما انتقل السلطان إلى أهل البلاد أنفسهم ، بل شاهده كل قطر دخله الإسلام وتغلغل فيه .

ومن الدول الإسلامية التى قامت من أهل البلاد الأصليين فى غربى إفريقيا دولة «مالي» ودولة «صغنى» ودولة «الكانم والبرنو» . وهذه الدول بعد قيامها كانت تشغل بالحياة الإسلامية وتتخذ مظهرًا إسلاميًا واضح المعالم .
وسوف نعرض لأهم هذه الدول التى ظهرت فى هذا الدور .

إلى مدينة أخرى كان لها ما لتمسكت من أثر فى تاريخ الإسلام والثقافة العربية ، وهى مدينة «جنى» التى أسلم أهلها آخر القرن الخامس الهجرى ، وأمها الفقهاء والعلماء ، كما انتشرت اللغة العربية بين كثير من أهالى دولة «غانة» الإسلامية ، وأصبحت لغة العبادة والثقافة الوحيدة بالبلاد بجانب كونها لغة التجارة والمعاملات .

انتهى هذا الدور بانتشار الإسلام فى بلاد «السودان الغربى» على نطاق واسع ، وتوطُن الثقافة العربية فى مركزين مشهورين فى «تمبكت» و«جنى» ، وبسقوط مملكة «غانة» الإسلامية على يد «الصوصو» ، وورثتها مملكة «مالي» الناشئة ، وبدأ دور جديد يمكن أن نسميه دور الازدهار فى

وفى ركاب المرابطين دخلت الثقافة الإسلامية متدفقة من مدارس «المغرب» و«الأندلس» ، فقد وحد المرابطون بين «السودان الغربى» و«المغرب» و«الأندلس» فى دولة واحدة . وفى عهدهم تم تأسيس مدينة «تمبكت» التى أصبحت حاضرة الثقافة العربية فى غربى «السودان» وقد أسسها قوم من طوارق «مقشرون» فى آخر القرن الخامس الهجرى ، وأصبحت سوقاً مهمة يؤمها الرحالة ويُقد إليها التجار من «مراكش» و«السودان» .

وسرعان ما اقتفى العلماء أثر التجار فوفدوا إليها من «المغرب الأقصى» و«الأندلس» ، بل ومن «مصر» و«توات» و«تافللت» و«فاس» وغيرها ، وأصبح مسجد الجامع الذى يسمى مسجد «سنكرى» جامعة إسلامية زاهرة فى هذه البقعة النائية ، وامتد الإسلام



مسجد تمبكت الجامع ، شيدته سلطنة مالي .



منتصف القرن السابع عشر الميلادي مجرد دويلة صغيرة في «كانجبا» كما كانت من قبل . وظلت هذه الدولة قائمة حتى ابتلعها الفرنسيون في عام (١٣١٦هـ = ١٨٩٨م) ، بعد أن هزموا آخر زعيم أراد أن يعيد مجد دولة «مالي» الإسلامية، ويوحد شعب «الماندنجو» وهو «ساموري التوري» ، ورغم جهاده المستمر فإن الفرنسيين قضوا عليه في العام نفسه ، ونفوه إلى «جابون» ؛ حيث مات هناك في عام (١٣١٨هـ = ١٩٠٠م) .

وقد استطاعت دولة مالي تحقيق كثير من المظاهر الإسلامية .

وأول هذه المظاهر ، اتصالها بالقوى الإسلامية المختلفة، وإظهارها لروح الأخوة الإسلامية، وقد ظهر هذا في سفر سلاطين هذه المملكة إلى مكة لأداء فريضة الحج وزيارة «مصر» في طريقهم إلى «مكة» ، وقد بدت هذه الظاهرة منذ فجر الدولة؛ إذ أشار «القلقشندي» إلى خروج «منساوли ابن ماري جاطة» إلى الحج في عهد السلطان «بيبرس» ، وتطورت الصلات بين «مالي» و«مصر» في عهد السلطان «منسا موسى» الذي يعد موكبه من أروع مواكب الحج التي وفدت على «مصر» في القرن الثامن الهجري .



وقد قدر بعض المؤرخين عدد من جاء في ذلك الموكب بعدة آلاف، وقالوا إن السلطان حمل خمسين ألف أوقية من الذهب وزع أكثرها على الناس في صورة هدايا أو صدقات في «مصر» و«الحجاز» ، وقد بعث إلى الخزانة السلطانية في «القاهرة» بحمل كبير من الذهب ، وقد أكرمه سلطان «مصر» وبعث إليه بالخلع وزوده بما يحتاج إليه في سفره إلى «مكة» من الجمال والمتاع والمثونة .

وكان السلطان «منسا موسى» قد بعث قبل مجيئه إلى «مصر» كتاباً إلى السلطان المملوكي «الناصر محمد» خاطبه فيه بما يدل على التقدير والإخاء ، وبعث إليه بخمسة آلاف مثقال من الذهب ،

الطرفين إلى زمن بعيد ، فيذكر «ابن عذاري» مؤرخ «المغرب» و«الأندلس» الشهير في كتابه «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» بعض الهدايا التي كان يرسلها ملوك «السودان الغربي» في القرنين الرابع والخامس الهجريين إلى ملوك «بنى زيري» في «تونس» ، أما سلطان مملكة «مالي» «منسا موسى» فقد أرسل إلى السلطان «أبي الحسن المريني» يهنئه باستيلائه على «تلمسان» ، كما بعث بالسفراء الدائمين إلى مدينة «فاس» ، وكانت العلاقات الثقافية مع «المغرب» في غاية القوة والازدهار ، بسبب انتشار مذهب «مالك» في البلدين .

وقد امتدت علاقات مملكة «مالي» إلى «الأندلس» ، بدليل ما يروى من أن «منسا موسى» استعان بأحد علمائها وهو «أبو إسحاق السهلي» من أهل «غرناطة» في بناء القصور والمساجد ، وإليه يرجع الفضل في إدخال فن البناء بالآجر في غربي «السودان» ، وبني مسجداً عظيماً في «جاو» وآخر في «تمبكت» ، كما بنى قصر «منسا موسى» نفسه .

وكان أهل «مالي» يحتفلون



بشهر رمضان وبالأعياد الإسلامية احتفالا كبيراً ، وكان السلطان يوزع الأموال والذهب على القضاة والخطباء والفقهاء وفقراء الناس ، ويصف «ابن بطوطة» خروج السلطان لصلاة العيد وصفاً رائعاً لا يقل فخامة وأبهة عن خروج خلفاء «بغداد» و«القاهرة» . ويقول إن الأهالي كانوا يواظبون على الصلاة في الجماعات ، وإنهم كانوا يضربون أولادهم إذا ما قصروا في أدائها وإنه إذا لم يبكر الإنسان في الذهاب إلى المسجد يوم الجمعة لم يجد مكاناً لكثرة الزحام .

صف قناطر مقبية ساحة برج أروقة مسقوفة



وبلغ من عمق العقيدة فى نفوسهم أنهم كانوا يلزمون أبناءهم بحفظ القرآن الكريم ، وكانوا يضعون قيوداً من الحديد فى أرجلهم إذا ما قصرُوا فى حفظه ، ولا تفك عنهم حتى يحفظوه ، ولذلك أنقن كثير من المالمين اللغة العربية ، وكان السلطان «منسا موسى» نفسه يجيدها ، وكان التعليم لا يتم إلا بها كما كانت لغة الحكومة فكانت الوثائق المهمة والمراسلات الدولية لا تكتب إلا بها ، كما كانت لغة التجارة والمعاملات ، أى أنها كانت اللغة السائدة بجانب اللغات المحلية ، مثل لغة «الهوسا» و«صنغى» و«الفولانيين» التى تأثرت باللغة العربية ، وتوجد آلاف الكلمات العربية مستخدمة فى شتى مظاهر الحياة فى غرب إفريقيا حتى اليوم ، وقد زار الرحالة الإنجليزى «فرانسيس مور» مالى عام (١١٤٤هـ = ١٧٣١م) ووجد معظم أهل «جمبيا» البريطانية يتكلمون العربية .



وقد ساعد على ذلك أن سلاطين «مالى» كانوا يكثرُونَ من بناء المساجد التى كانت تتخذ بجانب العبادة مكاناً للعلم والتدريس ، ويذكر أن السلطان «منسا موسى» كان يقيم مسجداً فى كل مكان تدركه فيه صلاة الجمعة إذا كان مسافراً أو خارج عاصمته ، ومن أهم هذه المساجد مسجد أو جامع سنكرى الذى أصبح جامعة علمية فى مدينة «تمبكت» ؛ حيث وفد إليه

العلماء وطلاب العلم من داخل «مالى» وخارجها ، وبلغ من أهمية هذه المساجد أنها أصبحت حرماً آمناً ، فكان السلطان إذا غضب على أحد من الرعية استجار المغضوب عليه بالمسجد ، وإن لم يتمكن من ذلك يستجير بدار خطيب المسجد ، فلا يجد السلطان سبيلاً إلا أن يعفو عنه ، وهذا يدل على مدى تقدير سلاطين «مالى» للأماكن الدينية وللعلماء ، وكان مجلس السلاطين

لا يعتقد إلا بحضور العلماء ولا يبت فى رأى إلا بعد مشورتهم ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما قام به سلاطين «مالى» من جهاد لنشر الإسلام وثقافته بين القبائل الوثنية سواء داخل دولتهم أو خارجها ، وما قالوا به من أصول عربية مشرقية لأسرتهم الحاكمة وهى أسرة «كتا» ؛ لأدركنا مدى حرص تلك السلطنة وهؤلاء السلاطين على التقاليد الإسلامية ومظاهر الحياة الإسلامية .

٣ - سلطنة صنغى الإسلامية

[٧٧٧ - ١٠٠٠هـ = ١٣٧٥ - ١٥٩١م]

بدأت سلطنة «صنغى» (صنغاي - سنغاي) دولة صغيرة لا تختلف من حيث قيامها عن سلطنة «مالى» أو «غانة» فقد تدفقت بعض قبائل مغربية - وخاصة قبائل «المطة» - فى نحو منتصف القرن السابع الميلادى إلى الضفة اليسرى لنهر «النيجر» عند مدينة «دندى» ، وسيطروا على الزراع من أهل «صنغى» ؛



ورحب هؤلاء بهم ليحموهم من الصيادين الذين كانوا يعتدون عليهم ونجح هؤلاء الوافدون فى تكوين أسرة حاكمة استفادت إلى حد كبير من العلاقات التجارية مع «غانة» و«تونس» ، و«برقة» و«مصر» ، وكانت هذه العلاقات التجارية ذات أثر بعيد فى تحويل ملوك «صنغى» إلى الإسلام فى بداية القرن الحادى عشر الميلادى



إبان النهضة الإسلامية التى اضطلع بها المرابطون فى ذلك الوقت لنشر الإسلام فى غربى القارة . رأى ملوك «صنغى» أن ينقلوا حاضرة ملكهم من «كوكيا» إلى «جاو» لتكون على مقربة من طرق القوافل الرئيسية . ومدينة «جاو» زارها البكرى عام (٤٦٠هـ = ١٠٦٨م) وقال : «إن مدينة كوكوا (جاو) مدينتان ، مدينة

الملك ومدينة المسلمين ، وإذا وُلِّي منهم ملك دُفِعَ إليه خاتم وسيف ومصحف يزعمون أن أمير المؤمنين بعث بذلك إليهم ، وملكهم مسلم لا يملكون غير المسلمين ، كما زارها «ابن بطوطة» في منتصف القرن الرابع عشر للميلاد ، وقال عنها : إنها مدينة كبيرة تقع على نهر «النيجر» ، وهي من أحسن مدن «السودان» وأكبرها وأخصبها ، وقد قابل فيها فقهاء ينتسبون إلى بعض قبائل البربر .

وكانت «جاو» والبلاد التابعة لها تشكل جزءاً من سلطنة «مالي» (٧٧٧هـ = ١٣٧٥م) ، عندما تحرك ملوك «صنغي» ، واستردوا استقلالهم منتهزين فرصة الضعف الذي أخذ يظهر في دولة «مالي» منذ ذلك الوقت واتخذوا لقب «سنِّي» أو «السُنِّي» .

وأخذت بلادهم تتسع في عهد «سنِّي علي» (٨٦٨ - ٨٩٧هـ = ١٤٦٤ - ١٤٩٢م) الذي كون جيشاً كبيراً منظماً سار على رأسه إلى الغرب ، واستولى على مدينة «تمبكت» (٨٧٣هـ = ١٤٦٨م) ، ثم على مدينة «جنِّي» (٨٧٨هـ = ١٤٧٣م) ، وفتح مملكة «الموسى» وضمها إلى دولته ، وتقدم شرقاً فهاجم بعض إمارات «الهوسا» فخضعت له «كاتسينا» و«جوير» و«كانو» و«زمفرة» و«زاريا» ، ثم



اتجه غرباً فاستولى على بلاد «الماندنجو» و«الفولاني» ، ومعظم ممتلكات دولة «مالي» الإسلامية ، واتجه شمالاً حتى مواطن الطوارق . وبذلك أسس «سنِّي علي» إمبراطورية «صنغي» الإسلامية ، وكان أول إمبراطور لها ، حتى مات في ظروف غامضة ، وبموته انتقل الحكم إلى أسرة جديدة أسسها أحد قواد «السونكي» ، وهو «أسكيا محمد الأول» بعد إعلان الثورة على ابن «سنِّي علي» واستيلائه على السلطة .

الموظفين الأكفاء ، كما نظم الجيش وأفاد من الخبرات السابقة ، واتخذت حركته مظهراً إسلامياً واضحاً نتيجة عاملين قام بهما :

الأول :

هو اهتمامه بالشئون الدينية واستغلاله ثروة سلفه في النهوض بها وقيامه بالحج إلى البيت الحرام في مكة (٩٠٠هـ = ١٤٩٥م) ، وكان موكبه في موسم الحج يفوق ما عرف عن موكب ملوك «مالي» ، من حيث الأبهة والفخامة ، واستردت «تمبكت» في عهده مكانتها كمركز للثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا ، وبلغ من شهرتها أن ملك «صنغي» كان ينسب إليها .

والعامل الثاني :

هو الجهاد الذي قام به بغرض توسيع رقعة بلاده ، ونشر الإسلام بين الوثنيين من جيرانه «الماندنجو» و«الفولاني» في الغرب «الطوارق» في الشمال ، وقبائل «الموسى» الزنحية في الجنوب ، و«الهوسا» في الشرق في مدن «كتسينا» و«غوير» و«كانو» و«زنفروريا» وقد خضعت هذه المدن كلها لهذا الملك عام (٩١٩هـ = ١٥١٣م) ، وكان هذا بداية لظهور الثقافة الإسلامية في هذا الجزء من شمال «نيجيريا» .

وقد أشار كثير من المؤرخين السودانيين إلى أن علماء من «تمبكت» رحلوا إلى هذه الجهات الخاضعة لنفوذ «صنغي» ، وأقاموا هناك يفتقِّهون الناس في الدين وينشرون الثقافة الإسلامية ، حتى امتد النفوذ الإسلامى إلى منطقة «بحيرة تشاد» ، وبلغت إمبراطورية «صنغي» أقصى اتساع لها ، فقد شمل نفوذها منطقة «السافانا» كلها من الشرق إلى الغرب ، واستطاع «أسكيا محمد الأول» أن ينشر الأمن والسلام في جميع ربوع هذه المملكة الشاسعة الأرجاء ، بتنظيماته الإدارية والعسكرية الرائعة التي قام بها بين صفوف الجيش والإدارة .

لكن حكمه آذن بالزوال حينما أصيب بالعمى وانتابه المرض وتآمر عليه أولاده ، وعزله أحدهم عن الحكم في عام (٩٣٥هـ =

١٥٢٩م) . وظل القواد والمغامرون يتنافسون من أجل السيطرة على الجيش والحكومة ، إلا أن «أسكيا إسحاق الأول» (٩٤٦ - ٩٥٦هـ = ١٥٣٩ - ١٥٤٩م) استطاع أن يلي العرش بمساندة الجيش ، وأن يعيد الأمن إلى نصابه ، وأن يقضى على منافسيه ، وأن يبعد كبار ضباط الجيش وكبار المسؤولين ، الذين أساءوا استخدام مناصبهم خلال فترة الاضطراب .

وعلى الرغم من ذلك لم يستطع الاحتفاظ بالعرش مدة طويلة ، فقد خلفه «أسكيا داود» (١٥٤٩ - ١٥٨٢م) الذي عين أنصاره في الوظائف المهمة واشتهر بحنكته السياسية فأبعد خطر ملوك «مراكش» عن بلاده بالمهادنة والتودد إليهم .

وبعد وفاة «داود» (٩٩٠هـ = ١٥٨٢م) أثرت المنازعات التي قامت بسبب العرش تأثيراً سيئاً على مملكة «صنغي» ، فقد كان سلاطين «المغرب» منذ عهد بعيد يتطلعون إلى مناجم الملح في «تغازة» وإلى السيطرة على تجارة الذهب ، وظل ملوك «صنغي» يصدون سلاطين «المغرب» حتى سنة (٩٩٣هـ = ١٥٨٥م) ، حينما انقسمت البلاد على نفسها ، فاستغل «أحمد المنصور الذهبي» سلطان «المغرب» الذي انتصر على البرتغاليين في موقعة «القصر الكبير» ضعف «صنغي» وسير

جيشاً كبيراً عام (٩٩٨هـ = ١٥٩٠م) استولى على العاصمة «جاو» بعد أن هزم قوات «إسحاق الثاني» في موقعة «تونديي» وبذلك دخلت البلاد في طور جديد من أطوار تاريخها وهو طور التبعية والفناء .

لكن واقعة «تونديي» لم تكن نصراً للمغرب إلا من الناحية العسكرية ؛ إذ إنهم لم يحققوا الأغراض التي قاتلوا من أجلها ، وهي السيطرة على مناجم الذهب في غرب إفريقيا ، لأن ثروة «صنغي» لم تكن نتيجة امتلاكها الذهب بقدر ما كانت نتيجة لسيطرتها على تجارتها مع مواطن إنتاجه ، في «وانجارا» و«يندوكو» و«أشتي» ، وكلها في جنوب مملكة «صنغي» ، وهي تجارة لا تزدهر إلا في ظل الأمن والسلام الذي قضى



عليه سلاطين «مراكش»، الذين لم يستطيعوا أن يمدوا نفوذهم إلى ما وراء المدن الرئيسية «جنى» و«تمبكت» و«جاو»، ولما أدركوا قلة الفوائد التي عادت عليهم من وراء هذا الفتح الذي كلفهم كثيراً، كفوا عن إرسال الجند والمثونة اللازمة إلى قواتهم، وتركوا هذه القوات تقرر مصيرها بنفسها، فنشأت أسرة محلية من باشوات «تمبكت» تدين بالتبعية الاسمية لسلطان «مراكش»، وتعتمد على عنصر خليط من البربر وأهل البلاد، أو المولدين الذين سموا باسم «أرما».

وكان هم هؤلاء الباشوات منصرفاً إلى جمع المال وحمل الزعماء المحليين على دفع الإتاوة على أن سلطانهم ضعف تدريجياً لاعتمادهم على الجيش الذي كان يعزلهم متى شاء، حتى بلغ عدد من تولى منهم بين سنتي (١٠٧٠هـ = ١٦٦٠م) و (١١٦٣هـ = ١٧٥٠م) نحو (١٢٨) باشا، ولما ضعفت قوة الجيش نفسه اضطر الباشوات منذ عام (١٠٨١هـ = ١٦٧٠م) إلى دفع الإتاوة إلى الحكام الوثنيين من ملوك «البمبارا»، وهم ملوك مملكة «سيجو» الوثنية، التي كانت تقع على وادي نهر «باني» جنوبي «كانجابا» في حوض «النيجر».

وظل الأمر على هذا النحو حتى جاء الفرنسيون واتهموا المنطقة بأسرها، وسموها «إفريقية



الاستوائية الفرنسية». وبعد نجاح حركة الكفاح الوطني ضد الاستعمار الفرنسي والإنجليزي؛ ظهرت عدة دول إسلامية حديثة على أنقاض إمبراطورية «صنغى» الإسلامية، وهذه الدول هي: «جمهورية موريتانيا»، و«جمهورية غينيا»، و«جمهورية مالي»، و«جمهورية السنغال»، و«جمهورية النيجر»، و«جمهورية نيجيريا»، و«جمهورية جامبيا».



وإذا كانت دولة «صنغى» قد شابته دولة «مالي» من حيث تطورها العام، فإنها قد شابته أيضاً في اتخاذها مظهرًا إسلامياً واضحاً، بل فاقتها في هذه الناحية في بعض الأحيان، وهذا التطور طبيعي، فقد امتد سلطان «صنغى» إلى القرن السادس عشر الميلادي، وكان الإسلام قد قطع خطوات واسعة في سبيل النمو والانتشار.

وقد سعى ملوك «صنغى» كما سعى ملوك «مالي» من قبل إلى الاتصال بالقوى الإسلامية المعاصرة، تحقيقاً لروح الأخوة الإسلامية، وفي هذا المجال كان لملوك «صنغى» اتصالات عديدة بملوك المسلمين في الشرق والغرب.

فقد خرج «أسكيا محمد الأول» إلى الحج ومر بمصر سنة (٨٩٩هـ = ١٤٩٤م) في موكب حافل، وأغدق على الناس والفقراء أكثر مما أغدق أسلافه، فقد روى «السعدى» صاحب كتاب «تاريخ السودان» أنه تصدق مثلاً في الحرمين الشريفين بمائة ألف مثقال من الذهب، واشترى بساتين في «المدينة المنورة» حبسها على أهل التكرور (أهل دولة صنغى)، واجتمع في موسم الحج بزعماء المسلمين، وتأثر بما رآه في «مصر» من نظم الحكم، ومن ثقافة عربية مزدهرة، فاتصل بالإمام «السيوطي» وغيره من علماء العصر، وتلقى تقليداً من الخليفة العباسي بالقاهرة،

وعاد إلى بلده متأثراً بما رآه من روح إسلامية، وعمل على تطبيق ما تعلمه من آراء وتجارب شاهدها بنفسه.

ويقال إن هذا السلطان قلد في تنظيماته الإدارية النظم التي رآها في «مصر»، وأمعن في إحاطة نفسه ببطانة من العلماء الذين كان يحمل لهم كل احترام وتقدير، فقد روى مؤرخو «السودان» أنهم كانوا إذا دخلوا عليه أجلسهم على سريره وقربهم وأمر بالآ يقف أحد إلا للعلماء أو الحجاج، وألا يأكل معه إلا العلماء والشرفاء.

كما أبطل البدع والمنكر وسفك الدماء، وأقام الدين والعقائد، وأعطى «جامعة تمبكت» المزيد من عنايته، فتفوقت في عهده ووصلت إلى ما لم تصل إليه من قبل، وكانت في غربي «السودان» كجامعة «الأزهر» في «القاهرة»، أو «القرويين» في «فاس» أو «الزيتونة» في «تونس» أو «النظامية» في «بغداد».

وأصبحت هذه السياسة الإسلامية سياسة مقرر خلفائه من بعده، فأسكيا إسحاق يسير في الطريق نفسه، من تشجيع العلماء وإكرامهم والأخذ بيدهم، و«أسكيا

داود» يتخذ خزائن الكتب وله نسخ ينسخون الكتب وربما يهادى بها العلماء، وقيل إنه كان حافظاً للقرآن الكريم.

وهذا يدل على أن دولة «صنغى» قد شهدت تمكن الإسلام من أهل غرب إفريقيا، كما شهدت ازدهار الثقافة الإسلامية إلى أبعد الحدود.

وبذلك نكون قد انتهينا من الحديث عن الدول الإسلامية التي قامت في بلاد «السودان الغربي»، أما «السودان الأوسط» فقد قامت فيه دول أهمها وأعظمها على الإطلاق هي سلطنة «الكانم والبرنو» الإسلامية.



٤ - سلطنة الكانم والبرنو الإسلامية

(٤٧٩ - ١٢٦٢ هـ = ١٠٨٦ - ١٨٤٦ م)

قامت هذه السلطنة في «بلاد السودان الأوسط» الذي يتكون من حوض «بحيرة تشاد» وما تقع حوالها من بلدان تمتد من «نهر النيجر» غرباً إلى «دارفور» شرقاً ، وكانت منطقة «بحيرة تشاد» مهد سلطنة «الكانم والبرنو» .



وقد ضُمَّت هذه الدولة عدداً كبيراً من القبائل والعناصر ، فهناك قبائل «الصو» ، وقبائل «الكانمبو» ، وقبائل «الكانوري» وهي خليط من العرب والبربر والزنوج ، وهؤلاء يكوّنون أغلب سكان هذه السلطنة ، يضاف إلى ذلك قبائل «التبو» (التدا) من البربر ، وكذلك «بربر الطوارق» من سكان المناطق الشمالية الصحراوية ، وكذلك قبائل العرب

الذين كانوا يُعرفون هناك باسم (الشوا) ، وقد قدموا إلى «تشاد» من «وادي النيل» ، ومن القارة عبر الصحراء ، وكانوا يتمثلون في قبائل «جدام» و«جهينة» و«أولاد سليمان» ، وقد أدّى اختلاط هؤلاء العرب بالوطنيين إلى ظهور عناصر جديدة، منها : «التنجور» و«البولالا» و«السالمات» وغيرهم .

وينقسم تاريخ هذه السلطنة إلى عصرين : عصر سيادة «كانم» ، ثم عصر سيادة «برنو» ، ويقع إقليم «كانم» - الذي كان مهداً لقيام هذه الدولة - في الشمال الشرقي لبحيرة تشاد وبه العاصمة «جيمي» ، أما إقليم «برنو» فإنه يقع غرب هذه البحيرة ، وبه العاصمة «بيرني» نجازر جامو» التي انتقل الحكم إليها بعد انقضاء عصر سيادة «كانم» .

وقد قامت هذه الدولة في القرن التاسع للميلاد على يد أسرة من البربر البيض هي الأسرة «الماغومية السيفية» ، التي تزعم أنها من أصل عربي من نسل «سيف بن ذي يزن الحميري» ، واستطاعت هذه الأسرة أن تسيطر على حوض «بحيرة تشاد» ، وأن تتخذ من مدينة «جيمي» عاصمة لها ، وبدأ الإسلام يطرق أبواب هذه الدولة منذ قيامها ، وخاصة من الشمال والشرق على يد التجار والمهاجرين الذين توافدوا عليها في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين . وتحدثت المصادر عن قيام داعية إسلامي كبير هو الفقيه «محمد بن مانى» ، الذي عاش في القرن الحادى عشر الميلادى ، وعاصر خمسة من ملوك «الكانم» الذين كانوا يعرفون باسم «المايات» (جمع ماي ، وهو لقب بمعنى : ملك) ، أولهم «الماي بولو» الذي كان يحكم نحو (٤١١ هـ = ١٠٢٠ م) وآخرهم هو «الماي أوم بن عبد الجليل» الذي بدأ حكمه في عام (٤٧٩ هـ = ١٠٨٦ م) وهو الذي جعل الدين الإسلامى ديناً رسمياً للدولة ، وذلك نتيجة لجهود هذا الداعية العظيم الذى أسلم على يديه هؤلاء المايات الخمسة ، وقد قام آخرهم وهو «الماي أوم بن عبد الجليل» (٤٧٩ - ٤٩٠ هـ = ١٠٨٦ -

١٠٩٧ م) بجهد كبير فى نشر الإسلام فى بلاده ، ثم اتجه إلى الشرق ، وذهب إلى بلاد «الحجاز» لأداء فريضة الحج ، ولكن المنية وافته بمصر أثناء عودته من أداء هذه الفريضة ، فدُفِنَ بها ، ومنذ عهد هذا الماي لم يتول حكم دولة «الكانم» أى ملك وثنى ، وأصبحت منذ ذلك التاريخ دولة إسلامية .

خلف «الماي دونغة بن أوم» والده فى حكم البلاد لفترة طويلة (٤٩١ - ٥٤٦ هـ = ١٠٩٧ - ١١٥١ م) وبلغت فى عهده دولة «الكانم» درجة كبيرة من القوة والانتعاش وطبقت شهرته الآفاق ، وحج ثلاث مرات . وفى عهده بُنيت مدرسة «ابن رشيق» فى «فسطاط مصر» بأموال كانغية ؛ كى تكون

موثلاً للحجاج القادمين من «كانم» وبلاد «التكرور» . وتابع خلفاؤه العمل على توسيع حدود هذه الدولة حتى صارت إمبراطورية كبيرة ، وخاصة فى عهد «الماي دونغه بن سالم بن بكر» (٦١٨ - ٦٥٧ هـ = ١٢٢١ - ١٢٥٩ م) الذى اشتهر بقوة فرسانه ، وكثرتهم حتى قيل إنها بلغت نحواً من (٤١) ألف فارس ، ويُعرف هذا الماي باسم «دونغه دباليمى» ، نسبة إلى والدته «دابال» ؛ حيث كانت النسبة إلى الأم شيئاً مألوفاً ومشهوراً فى هذه السلطنة بالذات .

وقد حارب هذا الماي القبائل المتمردة ، مثل قبائل «البولالا» الذين كانوا يعيشون فى حوض «بحيرة فترى الصغيرة» الواقعة إلى الشرق من «بحيرة تشاد» ،



حكاً بالاسم فقط .

استمر الشيخ «محمد الأمين» يحكم ما بقي من إمبراطورية «البرنو» و«الكانم» وأجرى مفاوضات مع سلطان الفولانيين «محمد بلو» الذي خلف أباه الشيخ «عثمان بن فودي» في زعامة الفولانيين ، واتخذ مدينة «سوكوتو» عاصمة له ، وأرسل له الشيخ الكانم رسائل أوضح له فيها أنهم أهل دين واحد هو الإسلام ، وأنه لا ينبغي أن يحارب بعضهم بعضاً وأن كلا منهما يجب أن يحترم حدود الآخر ، فهدأت الأحوال بين الدولتين حتى توفي الشيخ «محمد الأمين الكانم» في عام (١٢٥١هـ = ١٨٣٥م) وخلفه ابنه الشيخ «عمر» .

في عهد الشيخ «عثمان بن فودي» حتى اضطر هذا الماي إلى استدعاء أحد الكانمين والعلماء البارزين ويدعى الشيخ «محمد الأمين الكانم» لمساعدته في محتته ضد هذا الغزو الفولاني ، واستجاب هذا الزعيم لهذا الطلب وتبادل عدة رسائل مع الشيخ «عثمان بن فودي» ، كل منهما يحتاج الآخر عبر مناقشات فقهية يبرر كل منهما سياسته ، ولكن هذه الرسائل لم تؤد إلى إزالة حالة الحرب القائمة بين الفريقين ، وأخيراً نجح الفولانيون في الاستيلاء على عاصمة «برنو» فاضطر الماي إلى الهرب منها ولجأ إلى الشيخ محمد الأمين الذي أصبحت له السيطرة الكاملة على المايات الذين صاروا

في غربى القارة ، ثم انحدرت إلى الشرق واستقرت في إمارات «الهورسا» التي تتكون منها «نيجيريا» الشمالية الآن ، وقامت على يد زعيمها الشيخ «عثمان بن فودي» بحركة ضخمة لنشر الإسلام بين من كان على الوثنية في هذه الإمارات ، وتمكنت من ضم هذه الإمارات في دولة واحدة تحت زعامة هذا الداعية الكبير ، الذي أعلن قيام دولة «الفولاني» في بداية القرن التاسع عشر الميلادي هذا في الوقت الذي كانت إمبراطورية «البرنو» تزداد ضعفاً على ضعف وتلقى سلطانها «الماي أحمد بن علي» (١٢٠٦ - ١٢٢٣هـ = ١٧٩١ - ١٨٠٨م) أكثر من هزيمة على يد الفولانيين



وفي عهد هذا الشيخ حاول «الماي إبراهيم بن أحمد» (١٢٣٢ - ١٢٦٢هـ = ١٨١٧ - ١٨٤٦م) أن يسترد سلطاته التي سلبها منه الشيخ «محمد الأمين» ثم ابنه «عمر» ، واستعان في ذلك بأمر دويلة صغيرة تقع بين «كانم» و«دارفور» تسمى «واداي» وتآمر معه لغزو «برنو» .

ونفذ أمير «واداي» الخطة المتفق عليها وأباد جيش «برنو» في ١٢٦٢هـ = ١٨٤٦م) منتهاً فرصة غياب الشيخ «عمر» عن العاصمة؛ لحرب كانت واقعة بينه وبين أحد جيرانه الآخرين ، ولما علم هذا الشيخ نبأ هذا الغزو وهذه المؤامرة عاد إلى «برنو» ، وأخرج الغزاة منها نظير مبلغ كبير من المال دفعه لهم ، وقبض على الماي «إبراهيم» ومستشاريه وأعدمهم جميعاً ، ثم تخلص من الماي «علي بن دالاتو» عام (١٢٦٢هـ = ١٨٤٦م) الذي لم يحكم سوى أربعين يوماً وكان مفروضاً عليه كشرط لرحيل جيش أمير «واداي» عن «برنو» .

وبمقتل «علي بن دالاتو» انتهى حكم الأسرة «السيفية الماغومية» التي ظلت تحكم هذه البلاد أكثر من ألف عام ، وأصبحت «برنو» تحت حكم الأسرة الكانمية فعلياً ورسمياً منذ ذلك التاريخ وحتى وقوعها في قبضة الاستعمار الفرنسي في عام (١٣١٨هـ = ١٩٠٠م) ، وقد أعيد تقسيم أملاك



إمبراطورية «برنو» بين «إنجلترا» و«فرنسا» و«ألمانيا» بعد القضاء على مقاومة أحد المجاهدين ضد الاستعمار الأوربي وهو «رابح الزبير» . فأخذت «فرنسا» إقليم «كانم» ، وأخذت «إنجلترا» إقليم «برنو» ، وظفرت «ألمانيا» بالمناطق الجنوبية لبرنو ، وهكذا تلاشت إمبراطورية «برنو» التاريخية على يد الغزاة الأوربيين في بداية القرن العشرين الميلادي ، وظل الأمر على هذا النحو حتى قامت حركة

وجمهورية «إفريقيا الوسطى» التي استقلت عن «فرنسا» في العام نفسه أيضاً ، وتضم هذه الدولة الأطراف الجنوبية من إمبراطورية «البرنو» التاريخية ، ولذلك فإن نسبة المسلمين فيها قليلة . وجمهورية «النيجر» التي استقلت عن الفرنسيين في العام نفسه ، وضمت أغلب الأجزاء الشمالية الغربية من إمبراطورية «البرنو» ولذلك فإن (٩٥٪) من سكانها مسلمون يتكلمون اللغة العربية بجانب اللغات المحلية ، واللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية ، و«نيجيريا» التي استقلت عن «إنجلترا» في عام (١٣٨١هـ = ١٩٦١م) وضمت إقليم «برنو» الذي يقع غرب «بحيرة تشاد» ، كما ضمت جميع بلاد «الهوسا» ، وأكثر من (٧٠٪) من سكانها مسلمون يتكلم الكثير منهم اللغة العربية ولغة الهوسا بجانب اللغة الإنجليزية ، وهي اللغة الرسمية ، كذلك ضمت «جمهورية الكمرون» التي استقلت عن «فرنسا» في عام (١٣٨٠هـ = ١٩٦٠م) بعض الأجزاء الجنوبية والجنوبية الشرقية من «برنو» ، وكذلك فإن هذه الدولة دولة إسلامية ؛ إذ إن أكثر من (٥٥٪) من سكانها مسلمون ، واللغة الفرنسية هي السائدة بجانب اللغة العربية واللهجات المحلية .

وإذا كنا قد تحدثنا عن التاريخ السياسي لسلطنة «الكانم والبرنو» منذ أن أصبحت دولة إسلامية في عام (٤٧٩هـ = ١٠٨٦م) وحتى نهايتها على يد الاستعمار الفرنسي ، فإن الواجب يحتم علينا أن نتحدث باختصار عن الطابع الإسلامي ومظاهر الحياة الإسلامية في هذه السلطنة الكبيرة .

وفي هذا الصدد نستطيع القول بأن سلطنة «الكانم والبرنو» قد قامت بالدور نفسه الذي قامت به سلطنتا «مالى» و«صنغى» ؛ فقد اتصلت بالقوى المعاصرة لتأكيد روح الأخوة الإسلامية وللإفادة من خبراتها الثقافية والعلمية والإدارية والحضارية فقد اتصلت بمصر أثناء ذهاب أهلها وسلاطينها لتأدية

فريضة الحج ، وقد سبقت الإشارة إلى قيام أول سلطان في «كانم» وهو «أوم بن عبد الجليل» بأداء هذه الفريضة ، وإلى وفاته في مصر عام (٤٩٠هـ = ١٠٩٧م) عند عودته إلى بلاده ، وقام ابنه

«دونغمة» بأداء هذه الفريضة ثلاث مرات مرّ خلالها بمصر وفي حجته الثالثة غرق في مياه «البحر الأحمر» عند مدينة «عيزاب» في عام (٥٤٦هـ = ١١٥١م) وواصل مآيات «الكانم والبرنو» أداء هذه الفريضة .

ومن مظاهر الاتصال بالدول الإسلامية الرسائل المتبادلة بين سلاطين «مصر» و«البرنو» ، من ذلك رسالة أوردها «ابن فضل الله العمري» و«القلقشندى» وأشارت إلى استغاثة سلطان «البرنو» بسلطان «مصر» «الظاهر برقوق» في عام (٧٩٥هـ = ١٣٩٣م) لمساعدته في القضاء على تمرد القبائل العربية التي ساعدت خصومه السياسيين من «البولالا» .

كذلك كانت هناك علاقات ثقافية وتجارية بين «مصر» وسلطنة «الكانم والبرنو» من ذلك ما ترويه لنا المصادر من أن «الأزهر» كان به رواقٌ خُصص للطلاب القادمين من هذه السلطنة يُسمّى «رواق البرنوية» كما سمحت «مصر» للكانميين بإنشاء مدرسة تُسمّى مدرسة «ابن رشيق» في مدينة «الفسطاط» بمصر لتدريس الفقه المالكي ؛ ولكي تكون مقراً ينزل به حجاج «البرنو» .

أما العلاقات التجارية فقد ازدادت بين «مصر» وبلاد «الكانم والبرنو» ، ومما يدل على ذلك أن طائفة من أهل «كانم» اشتهرت

باسم «التجار الكارمية» رحلوا إلى «مصر» وأقاموا فيها واشتركوا بنصيب موفور في تجارتها الخارجية وخاصة في تصريف المحاصيل السودانية ، وتجارة البهار القادمة من «اليمن» و«الهند» و«الصين» ، واتخذت من مدينة «قوص» بصعيد «مصر» مركزاً لها .

وكان لهؤلاء التجار الذين عُرِفوا بالتقوى والورع فضل كبير في نشر الإسلام وخاصة في بلاد الحبشة .

كذلك كان لسلطنة «الكانم والبرنو» علاقات تجارية وثقافية مع شمال إفريقيا وخاصة «تونس» فقد اتصل سلاطين «الكانم» بحكامها من «بنى حفص» وتبادلوا الرسائل والهدايا ، من ذلك سفارة أرسلها الماي «عبدالله بن كادى» إلى السلطان الحفصى «أبى يحيى المتوكل» في عام (٧٢٧هـ = ١٣٠٧م) ، كذلك تبودلت الرسائل والسفارات مع «طرابلس» في عام (٩٠٨هـ = ١٥٠٢م) وسفارة بعث بها أيضاً في عام (٩٤١هـ = ١٥٣٤م) وأخرى في زمن الماي «إدريس ألوما» المتوفى عام (١٠١١هـ = ١٦٠٢م) كذلك نشطت العلاقات التجارية بين «برنو» وهذه البلدان .

ويمثل الجهاد قمة إيمان السلطنة بالإسلام ، فقد اتخذ سلاطينها طريقاً لرد العدوان والتعريف بالإسلام بين الوثنيين الذين كانوا



يقومون بالاعتداء على هذه الدولة الإسلامية ، وخاصة الوثنيين المقيمين في الجنوب ، فقد حاربهم السلاطين ودخل كثير منهم في الإسلام ، بالإضافة إلى أتباع أسلوب الإقناع الذي اتبعه بعض السلاطين وخاصة السلطان «إدريس ألوما» ، الذي اشتهر ببناء المساجد الضخمة من الحجارة ، وطبق الشريعة الإسلامية خاصة في معاملة الأسرى ، ونظم الجهاد بما يتمشى مع تعاليم الإسلام ، فازداد الدخول في هذا الدين وانتشر في منطقة «بحيرة تشاد» كلها .

كذلك فقد شجع سلاطين «الكانم والبرنو» انتشار الثقافة العربية الإسلامية ، فأكثروا من بناء المساجد والكتاتيب ، وكانت اللغة العربية هي لغة التعليم ولغة الحكومة الرسمية ، فضلا عن كونها لغة المعاملات التجارية ولغة المراسلات الدولية ، كما كان الحال في جميع الدول الإسلامية التي قامت في بلاد «السودان الغربي» ، وظلت الحال على هذا النحو حتى عصر الاستعمار الأوربي الذي قضى على اللغة العربية ولم يعد لها إلا وجود محدود بين قليل من الأهالي ، ووجود كبير في المدارس الدينية الإسلامية .

وفي ظل تشجيع سلاطين

«الكانم والبرنو» للثقافة الإسلامية ارتقى العلماء والفقهاء منزلة رفيعة ، وحرص السلاطين على رعايتهم والإغداق عليهم ، وإصدار المحارم (أى الفرمانات) التي كانوا يمنحونهم بمقتضاها كثيرا من الامتيازات المادية والإقطاعات ، ويحرّمون على أى شخص مهما بلغت منزلته وقدره أن يسلبهم شيئا منها . ولذلك ظهر في هذه السلطنة كثير من العلماء والفقهاء ، منهم الفقيه «محمد بن مانى» الذى

سبق الحديث عنه ، والإمام «أحمد ابن فرتو» الذى كان معاصرا للماي «إدريس ألوما» ، والذى تعد كتاباته المرجع الرئيسى لتاريخ «برنو» ، والعالم الكبير «عمر بن عثمان بن إبراهيم» ، والعالم «عبدالله ديلي ابن بكر» ، وغيرهم من العلماء الذين صدرت لهم محارم (فرمانات) تشجعا لهم على التفرغ للعلم والبحث والتدريس ؛ مما أدى إلى انتشار العلوم الإسلامية بين أهالى هذه البلاد .



إمارات الهوسا الإسلامية في شمالى نيجيريا

تشمل بلاد «الهوسا» ما يعرف الآن بنيجيريا الشمالية ، وجزءا من جمهورية «النيجر» ، وكانت تقع في العصور الوسطى في المنطقة المحصورة بين سلطنتي «مالى» و«صنغى» غربا ، وسلطنة «البرنو» شرقا ، تحدها من الشمال بلاد «أهير» والصحراء الكبرى ، ومن الجنوب ما يعرف الآن بنيجيريا الجنوبية .



و«الهوسا» (أو الخوصا) مصطلح يطلق على الذين يتكلمون بلغة «الهوسا» ، ولذلك فليس هناك جنس يمكن أن يسمى بهذا الاسم ؛ إذ إن الهوسويين لا ينحدرون من دم واحد ، بل جاء أغلبهم نتيجة امتزاج حدث بين جماعات قَبَلِيَّة وعِرْقِيَّة كثيرة ، أهمها : السودانيون . أهل البلاد الأصليون ، والطوارق من البربر ، والفلانيون وغيرهم .

ونتيجة عن هذا الامتزاج هذا الشعب الذى أصبح يتكلم لغة واحدة ، هي لغة «الهوسا» التى انتشرت انتشارا كبيرا فى إفريقيا الغربية ، حتى أصبحت لغة الناس والمعاملات المالية والتجارية .

وعلى الرغم من أن المتكلمين بلغة «الهوسا» فى هذا الجزء من القارة الذى يعرف الآن بنيجيريا كانوا يعيشون متجاورين ، ويتكلمون لغة

واحدة ، ويدين معظمهم بالإسلام ، فإنهم لم يعيشوا تحت حكم دولة واحدة ، بل كَوَّنُوا سبع إمارات صغيرة ، تُعرف باسم إمارات أو ممالك «الهوسا» ، وهى : «كانو» ، و«كاتسينا» ، و«زاريا» ، و«جوير» ، و«دورا» ، و«رانو» ، و«زمفرا» .

ويرى بعض الباحثين أن «دورا» هى أقدم هذه الإمارات ، وأن دماء أهلها وافدة من «مصر العليا»



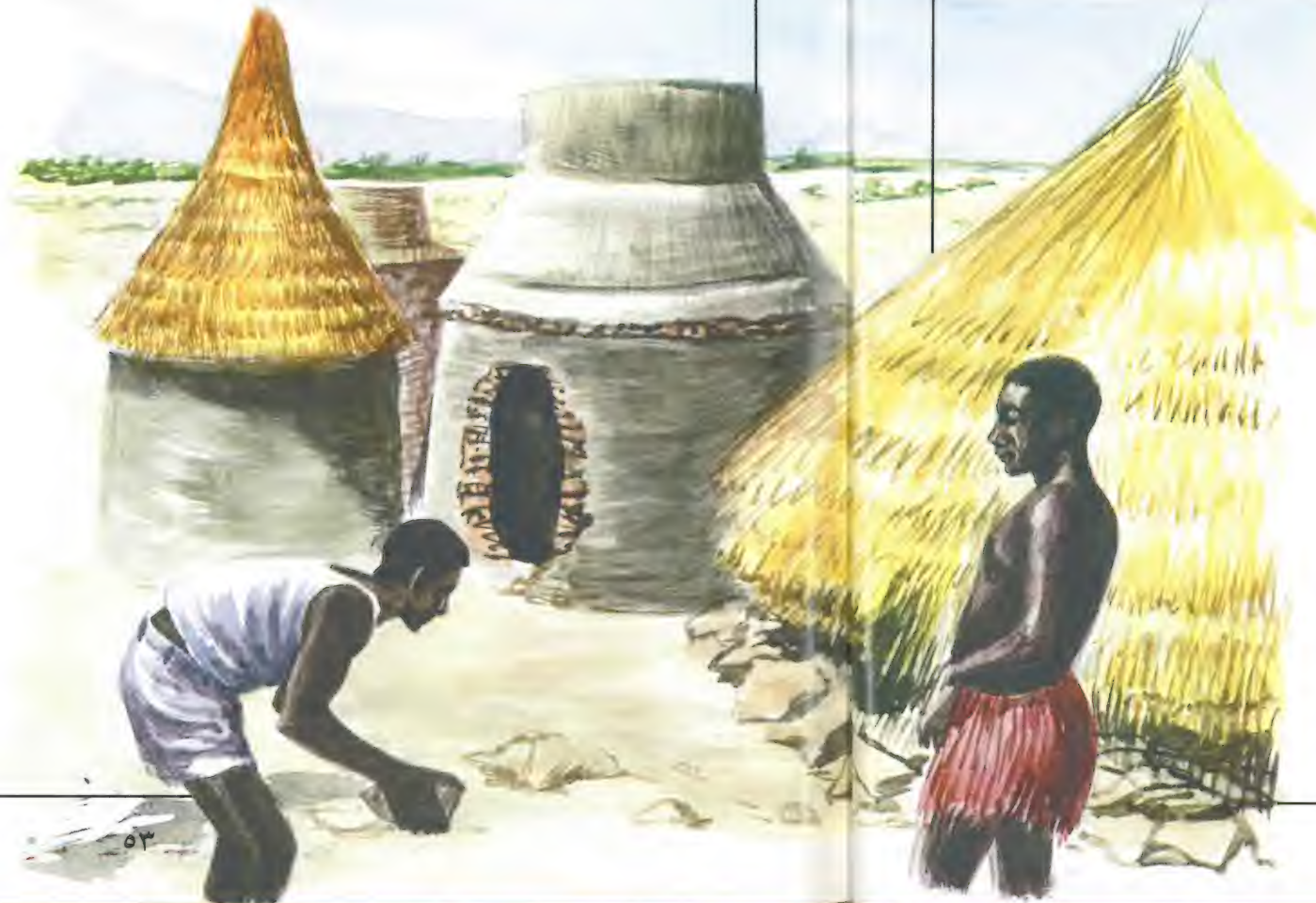
صناعة الخزف في الهوسا

العلماء ، كما ازداد عدد الرجال المتعلمين ؛ حيث كان العلماء يعلمون الناس الآداب والثقافة الإسلامية باللغة والحروف العربية. ومن العلماء الذين يرجع إليهم الفضل في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية في هذه الإمارات الشيخ «عبدالرحمن زيد» الذي مارس نشاطه في الدعوة في إمارة «كانو»، والشيخ «محمد بن عبدالكريم المغيلي» فقيه «توات» الشهير الذي رحل إلى «كانو» و«كاتسينا» ، ونشر فيهما عقيدة الإسلام الصحيحة ، والشيخ «عبد السلام» الذي أحضر معه كتب «المدونة» و«الجامع الصغير» والشيخ القاضي «محمد بن أحمد بن أبي محمد التاذختي» المعروف باسم «أيد أحمد» بمعنى «ابن أحمد» الذي وكي قضاء «كاتسينا» وتوفي نحو سنة (٩٣٦هـ = ١٥٢٩م) ، وغيرهم.

وقد كان للتجار - أيضاً - دور كبير في نشر الإسلام في هذه الإمارات ، بل كان لهم الدور

وبعد انتشار الإسلام في هذه الإمارات ، كثر وفود العلماء إليها للدعوة ونشر الإسلام وتصحيح العقيدة بين أهلها ، فقاموا بإنشاء عدد كبير من المساجد كمراكز لنشر الدعوة الإسلامية في هذه الإمارات وما حولها من المناطق الأخرى ، ونجحوا في القضاء على الوثنية التي كانت منتشرة بين السكان قبل دخولهم في الإسلام .

وقد وجد هؤلاء العلماء في هذه الإمارات الأمن والطمأنينة ، مما دفعهم إلى إحضار مؤلفاتهم ، وبخاصة في علوم اللغة والأدب والتوحيد ، ورحب بهم حكام هذه الإمارات ، فازدهرت الثقافة واتسعت مجالاتها بجهود هؤلاء



مكان الصدارة والشهرة باعتبارهما مركزين مهمين من مراكز التجارة والحضارة في ذلك الحين ، وبخاصة بعد أن أصبحتا من أهم مراكز الإسلام في تلك المنطقة من بلاد «الهوسا» .

وقد انتشر الإسلام في إمارات «الهوسا» السبع في فترة مبكرة إذ دخل الإسلام في إمارة «كانو» في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، وفي باقي الإمارات في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي ، وكان لاعتناق حكام إمارات «الهوسا» الإسلام ، بالإضافة إلى ما اتسموا به من العدالة وحب الرعية أثر كبير في انتشار الإسلام بين الناس ، فازداد تمسكهم به وازداد تفانيهم وإخلاصهم له .

فتحوا طريقاً للتجارة عام ٨٥٦هـ = ١٤٥٢م) ، وتوغلوا في الجنوب حتى حوض «فولتا» الأوسط .

وقد أصبحت طرق التجارة الخارجية ، وخاصة التي تخرج من بلاد «الهوسا» ، متجهة شمالاً إلى «أهير» . وتتصل عندها بالطرق الرئيسية المتجهة إلى «غات» و«غدامس» و«فرزان» و«تكدا» و«برنو» مفتوحة ومستعملة بطريقة كافية ومنظمة ، وأصبحت مألوفاً جداً للمسافرين والتجار ؛ مما شجع العلماء والباحثين على زيارة بلاد «الهوسا» بكل سهولة وارتياح ، كما شجع التجار المغامرين على ارتيادها .

وقد أدى هذا كله إلى انتشار الإسلام ، ونمو الحركة الفكرية ، وازدياد تأثير الثقافة العربية الإسلامية ، وسيطر تجار «الهوسا» على النشاط التجاري في جميع أنحاء «السودان الأوسط» ، وتضخمت جالياتهم في كل المراكز التجارية المهمة ، وأصبحت لغتهم لغة التخاطب العامة في الأسواق والمعاملات المالية والتجارية ، وازدادت سيطرتهم على التجارة في بلاد «السودان» بعد انهيار سلطنة «صنغي» الإسلامية أمام الغزو «المرأكشي» سنة (١٠٠٠هـ = ١٥٩١م) ، مما أدى إلى تحول المجري الرئيسي للحركة التجارية إلى بلاد «الهوسا» ، وقفزت «كانو» و«كاتسينا» بصفة خاصة إلى

و«الحبشة» وبلاد العرب ، و«كاتسينا» التي كانت تتوسط هذه الإمارات ، و«زاريا» أوسعها أرضاً ، و«كانو» أغناها ، و«جوبير» أجدها ، وتقع في شمالها .

وعلى ذلك فقد كانت كل إمارة من هذه الإمارات مستقلة عن الأخرى ، وكانت الحروب تندلع فيما بينها في فترات كثيرة ؛ نتيجة لأطماع حكامها في فرض سيطرتهم ، كل على الآخر ؛ أو نتيجة لتحالف أحدهم مع القوى الكبيرة المجاورة لبلاد «الهوسا» وهي :

دولة «البرنو» الإسلامية من الشرق ، ودولة «مالي» ثم دولة «صنغي» الإسلامية من الغرب .

وقد اشتهر الهوسويون بالمهارة في الزراعة والصناعة والتجارة ، وقد استغلوا موقع بلادهم المتوسط بين «السودان الغربي» و«السودان الشرقي» في الاشتغال بالتجارة ، ولذلك مهروا في هذه الحرفة ، وكانوا من أكثر التجار مغامرة ، وكانت قوافلهم تخترق الصحراء الكبرى ثلاثة أشهر من كل عام ؛ لتزود «طرابلس» ، و«تونس» وغيرهما من بلدان شمال إفريقيا بمنتجات بلاد «السودان» من ذهب وعاج ورقيق .

كما اخترقت قوافلهم مناطق الغابات في الجنوب ؛ حيث وصل نشاطهم التجاري إلى «نوب» ، واتجهوا شرقاً إلى «برنو» ؛ حيث



الأول في تعريف هذه الإمارات بالإسلام ، كما أدى انتشار الإسلام إلى ازدهار التجارة ازدهاراً كبيراً ، بسبب كثرة احتكاك هذه الإمارات بالمدن المجاورة لها .

آلة شعبية من قبائل الهوسا



وأصبحت «كانو» ، و«كاتسينا» ، و«زاريا» وغيرها من بلاد «الهوسا» مراكز إسلامية في هذه البقاع من القارة ، وتألفت فيها الثقافة الإسلامية ، وكان لها فضل كبير في نشر الثقافة الإسلامية بين سكانها وغيرهم من البلاد المجاورة ، فإمارة «كانو» يرجع إليها الفضل في نشر الإسلام شرقاً حتى حدود «برنو» ، وإمارة «زاريا» يرجع إليها الفضل في نشر الإسلام في أواسط بلاد «الهوسا» ، وجنوبيها في حوض «نهر فولتا» ، وكان علماء «تنبكت» - التي تقع على نهر «النيجر» - يرحلون إلى هذه الإمارات ، كذلك رحل إليها علماء من «مصر» ، من أبرزهم الإمام «جلال الدين السيوطي» المتوفى سنة (٩١١هـ = ١٥٠٥م) والذي نشأت بينه وبين أمير «كاتسينا» علاقة طيبة ، وهناك ما يدل على أن الإمام «السيوطي» رحل إلى هذه الإمارة وعاش فيها زمناً ، يعلم الناس ويفتيهم ، وعاد إلى «مصر» سنة (٨٧٦هـ = ١٤٧١م) ، واتصلت المراسلات بينه وبين علماء هذه البلاد ، كما اتصلت بينهم وبين علماء «مصر» وبلاد «الحجاز» وغيرهما ، مما يدل على التواصل الإسلامي ، وعلى صلة بلاد «الهوسا» بالعالم الإسلامي سواء في إفريقيا ، أو في غيرها من القارات .

سلطنة البلالة الإسلامية

في حوض بحيرة تشاد

[٧٦٦ - ١٣١٨هـ = ١٣٦٥ - ١٩٠٠م]

قامت هذه السلطنة في حوض بحير «تشاد» (أي : في بلاد السودان الأوسط) ، وبالتحديد في حوض بحيرة «فتري» ، وإلى الشمال منها حتى بحيرة «تشاد» ، وظهرت كدولة يمكن التحقق من تاريخها منذ عام (٧٦٦هـ = ١٣٦٥م) ، واستمرت حتى بداية القرن العشرين ، عندما سقطت المنطقة كلها في يد الاستعمار الفرنسي .



وعلى الرغم من طول مدة بقاء هذه السلطنة ، فإن المؤرخين لم يذكروها كثيراً ولم يهتموا بها ؛ لأنها كانت تابعة لسلطنة «الكانم والبرنو» في كثير من فترات حياتها . ويعود اسم «البلالة» إلى أول زعيم لهم ويدعى «بولال» أو «بلال» أو «جيل» أو «جليل» ، ومنه جاء اسم أول زعمائهم وهو «عبدالجليل» ، وربما جاء اسم «بلالة» أو «بولالة» من «بولو» الذي كان ابناً لقبائل «البيوما» التي كانت تسكن منطقة «بيو» (Biyo) ، ثم أُضيف إليه المقطع التماشكي ، فصار «بولالا» أو «بلالة» كما ينطقه البلاليون أنفسهم في هذه الأيام .

أما أصل قبائل «البلالة» فقد جاء نتيجة اختلاط عناصر متعددة سكنت هذه المنطقة ، وهى : البربر والعرب والسودان والزنج ، وقد تصاهرت هذه العناصر فيما بينها ، فأدى ذلك إلى امتزاجهم وتغير فى صفاتهم .

وقد كان «البلالة» وثنيين حتى القرن الثانى عشر الميلادى ؛ حيث أسلموا عقب إسلام بنى عموماتهم الذين يمثلون فى «الأسرة السيفية الماغومية» الحاكمة فى سلطنة «كانم» فى القرن الحادى عشر الميلادى .

أما من الناحية السياسية فقد ظهر خطر «البلالة» على سلاطين دولة «كانم» منذ وقت مبكر ، رغم صلة القرابة التى تربط بينهما ، ويعود ذلك إلى أن «البلالة» كانوا يحاولون التخلص من تبعيتهم لأقربائهم من حكام «كانم» ، وقد ظهر هذا الخطر منذ عهد أول سلاطين «كانم» الإسلامية وهو المائى (السلطان) «أوم بن عبدالجليل» (١٠٨٦ - ١٠٩٧م) الذى حاربهم وانتصر عليهم ، فأعلنوا الطاعة والخضوع ، وظلوا يتقبلون بين التبعية والتحرر من سلطان «كانم» حتى ظهر زعيمهم الموصوف بالقوة والشجاعة والدهاء وهو «عبدالجليل سيكومامى» الذى حقق لهم الاستقلال التام والتوسع فى حدود سلطنته فى عام (١٣٦٥م) ، بفضل معاونة العرب الموجودين فى هذه المنطقة ، واتخذ من مدينة «ماسيو»

التي تقع بين «بحيرة فترى» و«كانم» عاصمة له . ثم حارب مائات كانم وانتصر عليهم ، وبذلك وقع إقليم «كانم» بأسره فى قبضة «البلالة» ، مما جعلهم يحكمون دولة واسعة تمتد من حدود «دارفور» الغربية وبلاد «النوبة» حتى شواطئ «بحيرة تشاد» الشرقية ، واضطرت «الأسرة السيفية الماغومية» الحاكمة فى «كانم» إلى الهرب إلى إقليم «برنو» الذى يقع فى غرب «بحيرة تشاد» . ولكن لم يلبث حكام «برنو» أن استعادوا قوتهم على يد المائى «على

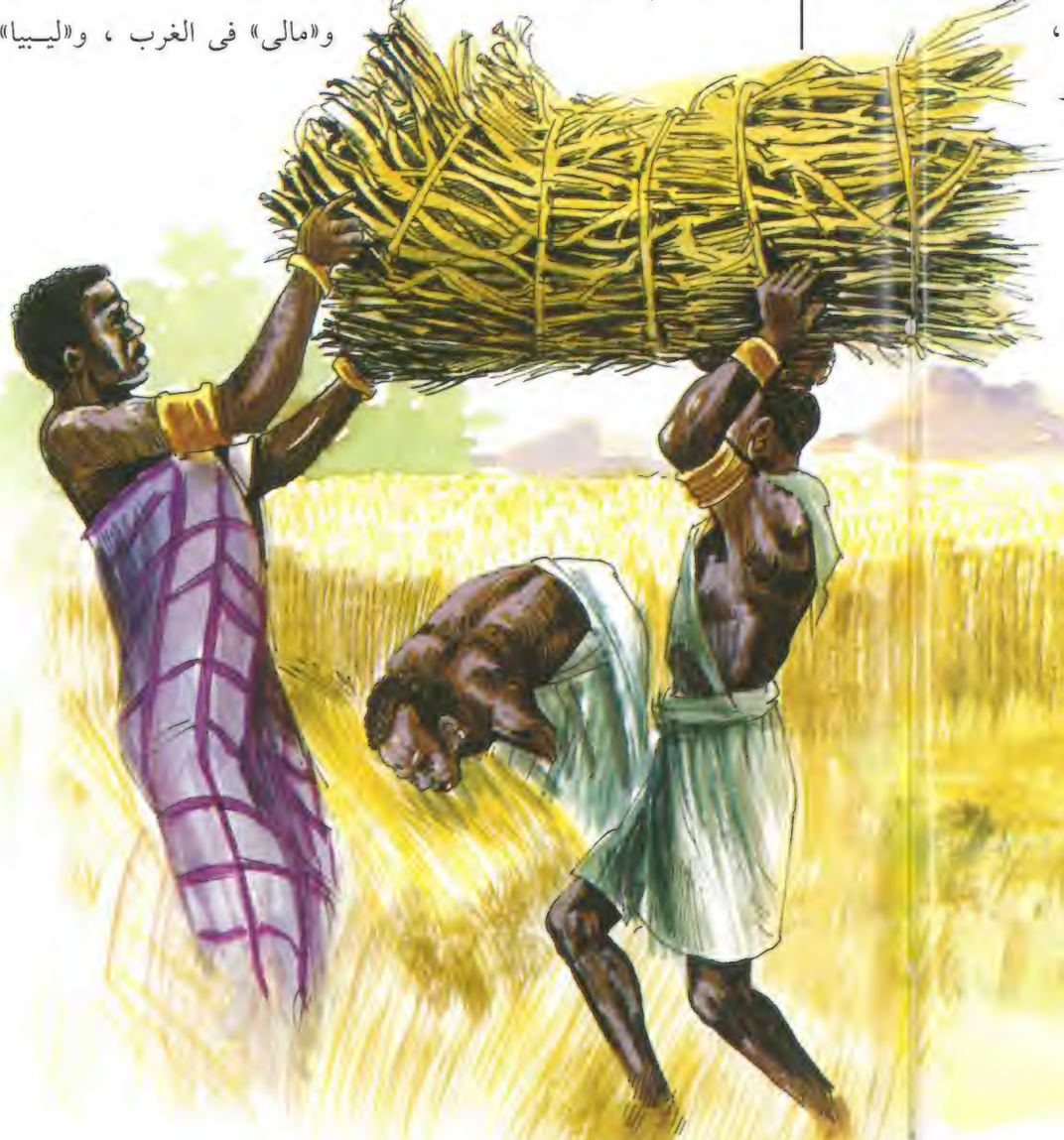
جاجى بن دوغه» الملقب بالغازى ؛ نظراً لغزوه إقليم «كانم» ، ونشب بينه وبين «البلالة» صراع منذ عام (١٤٧٢م) فى محاولة لاسترداد «كانم» مرة أخرى ، واستمر الصراع فترة طويلة انتهى بعقد اتفاقية سلام ، اتفقا فيها على رسم الحدود بين «كانم» و«برنو» . وعلى الرغم من ذلك وبمرور الوقت بدأ الضعف يدب فى جسد سلطنة «البلالة» ؛ بسبب الفتن والاضطرابات والحروب الأهلية ، وظهور إمارات جديدة بدأت تُغير

على سلطنة «البلالة» ، مثل سلطنة «واداي» التى تقع فى الشمال الشرقى لدولة «البلالة» ، وسلطنة «باجرمى» التى تقع فى جنوبيها الغربى .

وعلى الرغم من هذا الضعف ، فقد ظلت هذه السلطنة قائمة حتى بداية القرن العشرين ؛ حيث سقطت فى قبضة الاستعمار الفرنسى فى عام (١٩٠٠م) ، ومع ذلك حكم بعض سلاطين «البلالة»

تحت راية هذا الاستعمار ، وظلوا كذلك حتى نالت البلاد استقلالها فى عام (١٩٦٠م) ودخلت بلاد «البلالة» ضمن حدود جمهورية «تشاد» الحالية منذ ذلك التاريخ .

وقد أدت «سلطنة البلالة» دوراً اقتصادياً وعلمياً ودينياً مهماً فى تاريخ المنطقة ؛ إذ كانت نظراً لموقعها بين «دارفور» و«النوبة» فى الشرق ، و«كانم» و«بحيرة تشاد» وماوراءها من بلاد «الهوسا» و«مالى» فى الغرب ، و«ليبيا» فى



الشمال - مركزاً مهماً من مراكز التجارة التى تأتى من هذه البلدان مما انعكس أثره على مسيرتها التاريخية ، ودعم اقتصادها ، وربط بينها وبين دول تقع خارج منطقة «بحيرة تشاد» ، واتسعت تجارتها حتى وصلت إلى «مصر» وغيرها من البلدان ، كما زادت محصولاتها الزراعية .

أما الحياة العلمية فقد تجلت فى المدارس والعلماء والفقهاء والأشراف الذين كانوا يُعَامَلُونَ بكلّ تبحر واحترام ، كما ظهرت الطرق الصوفية وبخاصة «التيجانية» و«القادرية» ، وكان لهذه الطرق أثر كبير فى نشر الإسلام فى هذه البلدان .

أما اللغات التى كانت منتشرة بين «البلالة» ، فهى عديدة ، فقد كانوا يتكلمون لغة «كوكا» وهى قبيلة كانت تسكن مملكة «جارجا» - أحد أقاليم سلطنة البلالة - وكانوا يتكلمون أيضاً اللغة العربية التى كانت لغة العلم والتعليم ولغة الحكومة الرسمية والتجارة والمراسلات ، حتى قضى الاستعمار الفرنسى عليها وعلى استخدام الحروف العربية فى الكتابة وحوّلها إلى الكتابة بالحروف اللاتينية ، وإن كان كثير من الأهالى - حتى الآن - يحافظون على التحدث والكتابة باللغة العربية ، ومعظمهم - أى نحو (٨٥٪) - يدينون بالإسلام .

الطابع الإسلامي والثقافة العربية

في غربي إفريقيا

(السودان الغربي والأوسط)

يهما الآن أن نتحدث عن الطابع الإسلامي ومظاهر الحضارة في غربي إفريقيا ، وعن المراكز التي نهضت بهذا العمل وحفظت للإسلام نقاءه وقوته حتى بداية تعرض المنطقة للكشوف الجغرافية الأوروبية والاستعمار الأوربي في العصر الحديث .

«السعدى» صاحب كتاب «تاريخ السودان» ، و«محمود كعت» صاحب كتاب «الفتاش» وغيرهما ؛ تشعرنا بأننا نتعامل مع مجتمع إفريقي صميم ، اكتسب الثوب والصبغة الإسلامية الواضحة .

ونلاحظ أن الامتزاج الكامل بين التقاليد الإسلامية والتقاليد السودانية الزنجية في بداية هذا الدور قد تم ، كما تمت المواءمة بين هذين العنصرين ، وظهرت تقاليد إسلامية الشكل والطابع ، إفريقية الروح ، وروايات الرحالة والجغرافيين والمؤرخين العرب مثل «ابن بطوطة» و«الحسن الوزان» و«القلقشندي» وغيرهم ، ومن مؤرخي «السودان» مثل



عن رجل مهمته أن يكون سفيراً بين السلطان والناس اسمه أو لقبه الشاعر ، وعن المحيطين بالسلطان وهيبة الداخلين عليه ، وغير ذلك .

ورواية «ابن بطوطة» لا تبعد كثيراً عن هذا الوصف ، وهو يشير إلى دار السلطان التي تطل على المشور (دار الشورى) ، ويصف السلطان وترتيب المجالسين فيشير إلى نائبه ، ثم الفرارية ، وهم الأمراء ، ثم الخطيب ، والفقهاء .

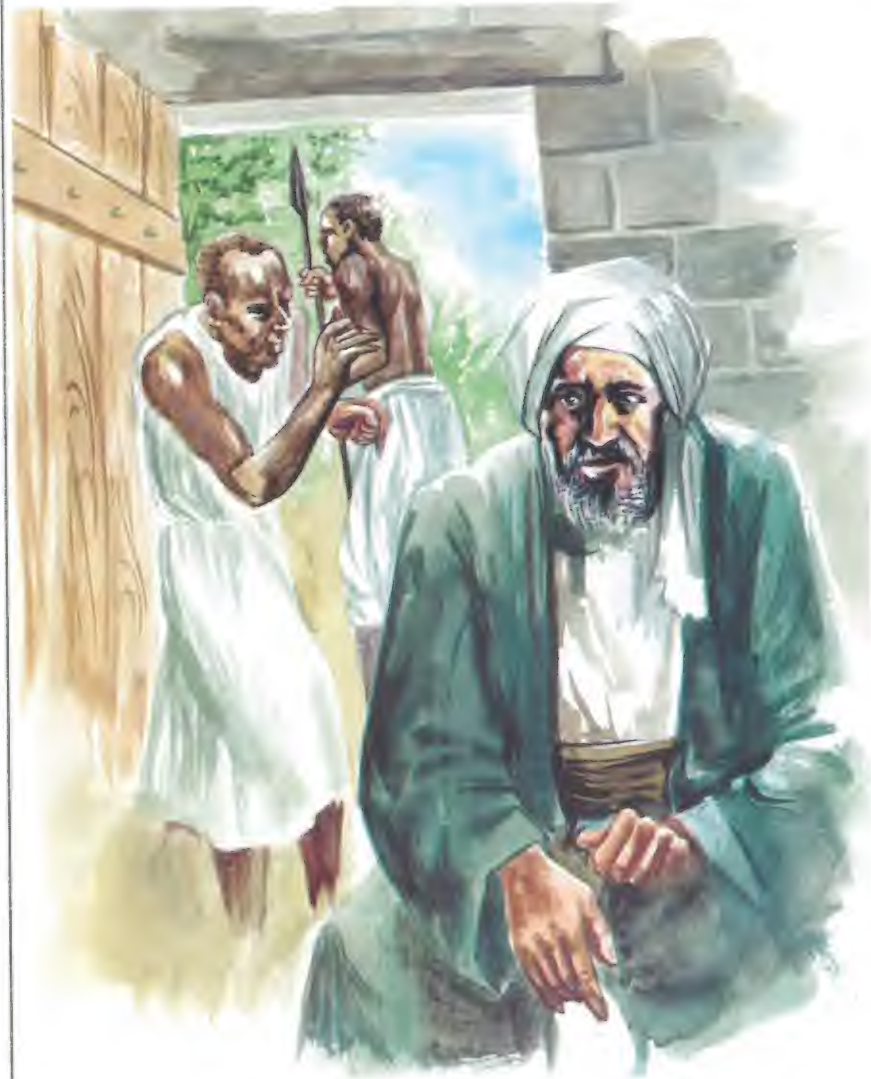
ولم ينفرد سلاطين «مالي» بهذا اللون الفريد من الحياة ، فقد شاركهم فيه أهل «صنغى» وغيرهم من شعوب «السودان الغربي» والأوسط ، في إمارات «الهوسا» السبع في شمالي «نيجيريا» وفي بلاد «الكانم والبرنو» .

وكانت العلاقة بين السلاطين والرعية تقوم على الخضوع الشديد لهؤلاء السلاطين ، يدل على ذلك العادات التي كانت منتشرة في بلاد «السودان الغربي» ، والأوسط .

ومع ذلك ثمة مظاهر إسلامية أو عربية خالصة ، تتجلى في التشدد والتمسك بمذهب «مالك» ، وحرص الفقهاء على التقاليد وعزوفهم عن مصاحبة السلطان وتولى الوظائف ، مثلما كان الحال في بلاد شمال إفريقيا و«الأندلس» . وقد تغلغل العلماء في الحياة وتمتعوا بالزعامة الدينية والشعبية ؛ إذ صاروا لسان حال الشعب والمدافعين عنه أمام ظلم

الحكام وعتتهم ، وهى الصورة نفسها التي نلاحظها في المغرب الإسلامي وبلاد «الأندلس» ؛ مما يدل على وحدة تلك المنطقة من الناحية الدينية والثقافية ، كذلك نشعر بتقدير سلاطين السودان لهؤلاء الفقهاء واحترامهم لهم ، حتى إن من يلجأ إلى ديارهم يأمن عقاب السلطان ولايجرؤ أحد على التعرض له بسوء .

وقد سبقت الإشارة إلى مواظبة أهل «السودان الغربي» على الصلوات والتزامهم بها في الجماعات ، وضربهم أولادهم إذا



ما قصرُوا في أدائها أو في حفظ القرآن ، وازدحام المساجد بالمصلين حتى إنه إذا لم ييكر المرء بالذهاب إلى المسجد لم يجد موضعاً ، كما سبقت الإشارة إلى كثرة عدد المساجد واعتناء السلاطين بينها وتعيين الأئمة والخدم لها ، وقد التزم الجميع بمذهب الإمام «مالك» . كما نلاحظ أن جميع الأسر الحاكمة في «السودان الغربي» والأوسط اصطنعت لنفسها نسباً عربياً ؛ فسلاطين «مالي» يدعون الانتساب إلى «عبدالله بن صالح بن الحسن بن على» ، وانتسب سلاطين



«كانم وبرنو» إلى «حمير»، واتخذ سلاطين «صنغى» مثل هذا النسب العربى ، بل وحرصوا على الحج والحصول على تقليد من الخليفة العباسى بالحكم ، كل ذلك ليكتسبوا صبغة إسلامية كاملة ليفوزوا برضا الرعية ، ليفسحوا لأنفسهم مجالا فى الحياة الإسلامية الدولية .

وقد حرص سلاطين «السودان الغربى» والأوسط وملوكهم ورعيتهم على أن يقتبسوا من التقاليد الشائعة فى الحياة الإسلامية المعاصرة لهم ، فهم فى لباسهم يتشبهون بأهل «المغرب» ، وتأثر كل من «منسا موسى» و«أسكيا محمد الأول» اللذين زارا «مصر» بأساليب الحياة فى «مصر المملوكية» ، فسلطان «مالى» مثلا يتخذ حاشية من ثلاثين مملوكًا من الترك ، اشتراهم من «مصر» ، وطريقة جلوسهم وخروجهم إلى المسجد يوم العيد لاتختلف كثيرا عما كان مألوفًا عند سلاطين الممالك وغيرهم من ملوك الإسلام.

كما حرصوا على أن تكون وثائقهم ومكاتباتهم الرسمية باللغة العربية ، حتى التنظيمات الإدارية والحربية تأثروا فيها بما شاهده فى «مصر» ، فملوك «صنغى» يقسمون الإمبراطورية إلى ولايات أو أقاليم وكل ولاية إلى مدن ثم إلى قرى ، ثم ينظمون الجيش إلى فرق للمشاة والخيالة والأبالة ، بل استخدموا

الأسلحة النارية وخاصة ملوك «الكانم والبرنو» ؛ مما ساعدهم فى مشروعاتهم السياسية والحربية إلى حد كبير .

أما عن الثقافة الإسلامية فإنه يمكننا القول : إن هذه الثقافة كانت عربية خالصة ، لم تدخلها تأثيرات أخرى ؛ لعدم وجود تقاليد ثقافية زنجية فى ذلك الوقت ، وكانت هذه الثقافة الإسلامية ذات صبغة مغربية أندلسية ؛ حيث إن الإسلام دخل إلى تلك البلاد من «المغرب» ، وبالتالي انتقلت ثقافة «المغرب» إلى «أودغشت» و«تبتكت» و«جاء» وبقية مدن «السودان الغربى» والأوسط ، حتى طريقة

عن مشاهدتك
والمشاهدات
والجملات
والقشور إلى
بقايا
الجملات

نموذج من
الخط المغربى
القديم

القبور التى كشف عنها فى منطقة «النيجر» ظهر أنها صنعت فى مدينة «ألمرية» بالأندلس عام (٤٩٤هـ = ١١٠٠م) ، وتحمل نقوشًا عربية أندلسية ، كما تأثرت قصور ملوك «السودان الغربى» والأوسط بالعمارة المغربية الأندلسية .

وقد تأثرت مدارس «السودان الغربى» والأوسط بالمدارس الإسلامية الأخرى ، خاصة مدارس «مصر» المملوكية ، ورحل أهل «السودان» إلى «مصر» وتعلموا فيها ، ورحل بعضهم إلى «الشام» و«الحجاز» ، ووصلت مؤلفات المصريين إلى هذه البلاد ، وقد عرفنا كيف ابتاع «منسا موسى»

الكتب وحملها معه إلى بلاده ، كما أن مؤلفات «السيوطى» وغيره من علماء «مصر» شاعت فى هذه البلاد ، وكان تأثر الطلاب السودانين بمدارس «مصر» لا يقل عن تأثرهم بمدارس «المغرب العربى» .

وليس معنى ذلك أن الثقافة الإسلامية فى غربى إفريقيا كانت تقل عن نظيرتها فى بلاد «المغرب» ، من حيث الغزارة والعمق ، فعلماء «السودان» وفقهاؤه لم يختلفوا عن نظائرهم فى «المغرب العربى» ، فقد روى «السعدى» أن فقيهاً اسمه «عبدالرحمن التميمى» جاء من الحجاز بصحبة السلطان «منسا

موسى» حين عاد من الحج فأقام بتمبكت زمناً ، ولما رأى فقهاءها يتفوقون عليه غادرها إلى «فاس» حتى يتزود من العلم ثم يعود إليهم .

وهناك من اشتهر من مؤرخى السودان الغربى والأوسط وكتّابه أمثال «أحمد بابا التمبكتى» ، الذى وُلد بوهران عام (٩٦٣ - ١٠٣٧ = ١٥٥٦ - ١٦٢٧م) فهو من أصل صنهاجى ، ثم رحل إلى «تبتكت» وفيها ظهرت مواهبه وارتفعت مكانته العلمية وكان رجلاً واسع الثقافة ، ألّف فى كل العلوم المؤلفات فى عصره ، وذيل كتاب الديباج المذهب لابن فرحون وسماه «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» ، وأرخ فيه حتى سنة (١٠٠٦ هـ =

١٥٩٧م) وهو يعطينا صورة طريفة لتاريخ الحركة الفكرية في «السودان الغربي» كله .

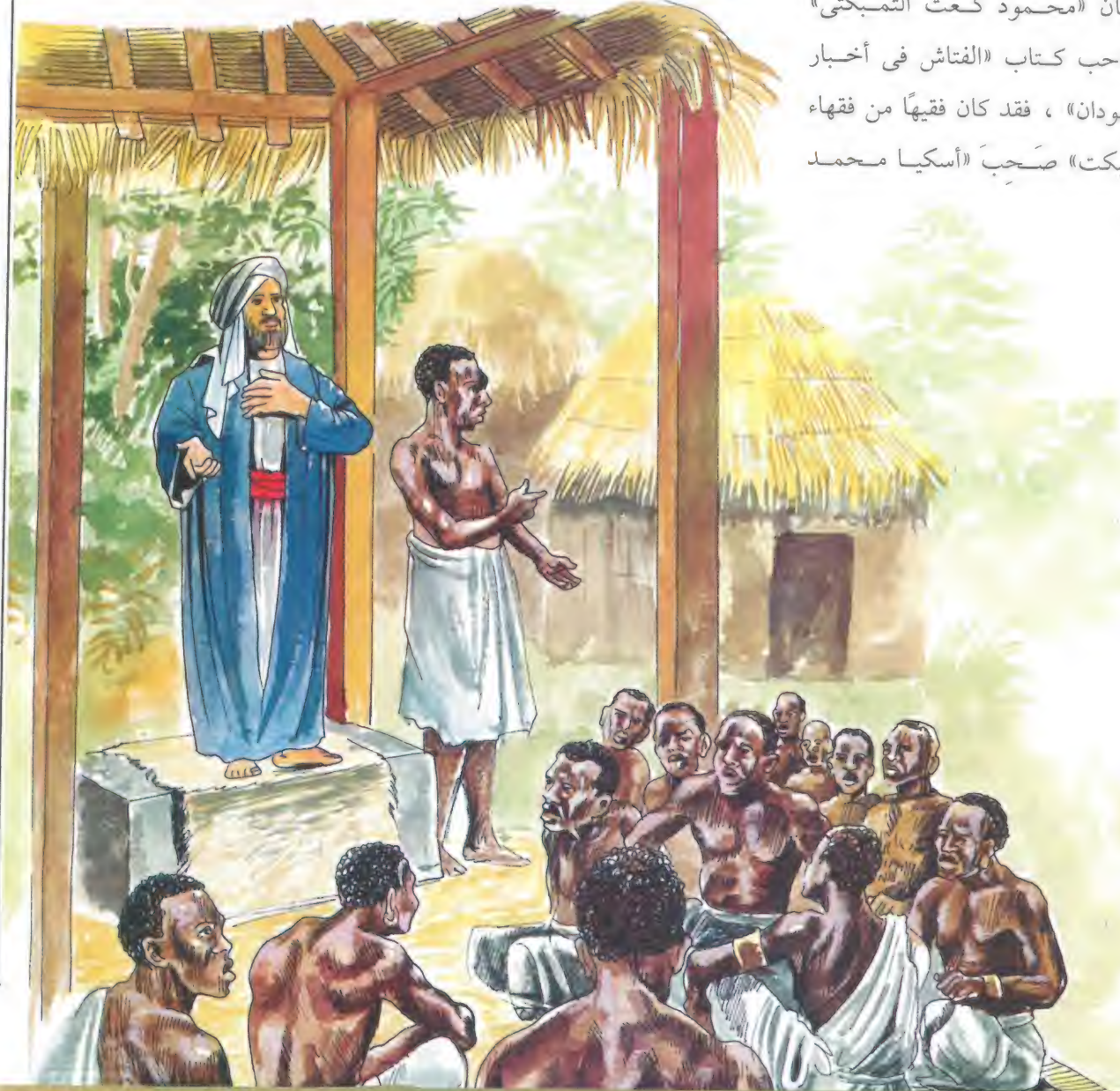
وهناك المؤرخ «السعدى» وهو من رجال القرن السابع عشر الميلادى ، وقد أقام بتمبكت «وجنى» ورحل إلى «المغرب» ، وهو صاحب الكتاب المشهور المسمى «تاريخ السودان» ، والذي يعطينا معلومات وافية عن تاريخ «دولة صنغى» وعن أحوالها الاجتماعية والثقافية ، كذلك كان شأن «محمود كعت التمبكتى» صاحب كتاب «الفتاش فى أخبار السودان» ، فقد كان فقيهاً من فقهاء «تمبكت» صَحِبَ «أسكيا محمد

الكبير» ، وألف كتابه بالأسلوب المغربى المألوف نفسه .

وهناك أيضاً الإمام المؤرخ «أحمد بن فرتو» ، الذى عاش فى سلطنة «برنو» وكان يعاصر المائى «إدريس ألوما» (٩٧٨ - ١٠١٢هـ = ١٥٧٠ - ١٦٠٣م) ، وهذا الإمام سليل أسرة دينية كان لها أثرها الكبير فى نشر الإسلام فى «برنو» ، وجده البعيد هو الإمام «محمد بن مانى» الذى أسلم على يديه سلاطين «كانم وبرنو» الأوائل فى القرن الحادى عشر الميلادى .

وقد كتب «أحمد بن فرتو» تاريخاً لبلاده يعتبر المرجع الرئيسى ، وخاصة تاريخ الفترة التى عاصرها زمن «إدريس ألوما» ، ومؤلفاته مدونة باللغة العربية ونشرت فى عام (١٣٤٩هـ = ١٩٣٠م) على يد أمير «كانو» فى «نيجيريا» .

ورغم أن هؤلاء الكتّاب وغيرهم كتبوا باللغة العربية فإننا لا ندرى بالضبط مدى انتشار اللغة العربية بين عامة الناس فى تلك الفترة ، ويدو أنهم كانوا يستخدمون لغتهم الأصلية فى حياتهم الخاصة ، ويقتصر



استعمال العربية عندهم على المكاتبات والعقود التجارية ، ومما يدل على ذلك أن «ابن بطوطة» حضر صلاة الجمعة فى أحد مساجد «مالى» ؛ فرأى رجلاً يقف ويبين للناس بلسانهم كلام الخطيب ، أى أنه كان يترجم كلام الخطيب إلى اللغة المحلية ، ويشير هو وغيره إلى وجود وظيفة الترجمان فى بلاط السلطان ، ويتضح ذلك أيضاً من اختلاط «ابن بطوطة» و«الحسن الوزان» ببعض أهالى «السودان» ، وكانا لا يعرفان لغة هؤلاء الناس إلا عن طريق ترجمان .

هذا عن انتشار الثقافة العربية الإسلامية فى غربى إفريقيا ، أما المراكز التى استقرت فيها هذه الثقافة وانطلقت منها إلى نواحي «السودان» المختلفة فعديدة ؛ من أهمها : مدينة «تمبكت» ، و«جنى» ، و«أودغشت» ، و«كانو» ، و«كتسينا» ، و«جاو» .

١ - مدينة تمبكت :

تعتبر مدينة «تمبكت» أهم مركز تجارى وثقافى فى غربى إفريقيا ، وقد أنشئت فى أواخر القرن الخامس الهجرى سنة (٤٩٠هـ = ١٠٩٧م) فى عهد الأمير «يوسف ابن تاشفين» على نهر «النيجر» الأعلى ، وبلغت مكانة لا تقل عن مكانة «القيروان» أو «فاس» أو «القاهرة» أو «قرطبة» فى مجال الثقافة العربية الإسلامية ، التقى

فيها العلماء والفقهاء من جميع الأجناس والألوان من بلاد «المغرب» و«الأندلس» و«مصر» و«الحجاز» وبلاد «السودان» .

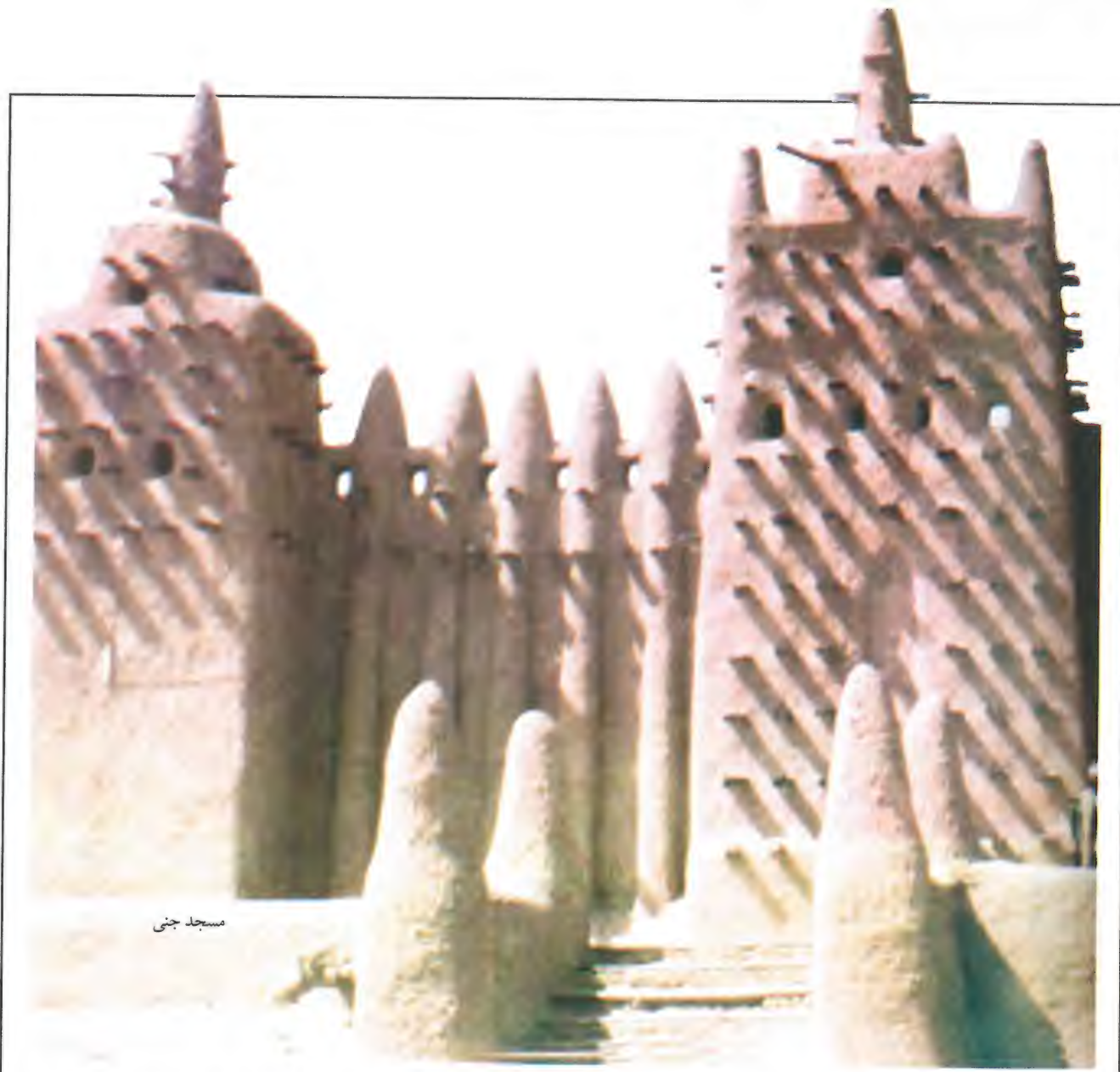
وكانت «تمبكت» مركزاً مهماً من مراكز الثقافة العربية فى إفريقيا ، تخرج فى جامعتها - التى يمثلها «جامع سنكرى» الشهير - علماء ومؤرخون كان لهم فضل كبير فى نشر الإسلام والثقافة العربية ، وكان الطلاب يقدون إلى هذه المدينة بعد حفظ أجزاء من القرآن



المسجد الكبير فى تمبكتو

فى مدارسهم المحلية ، ثم يكملون تعليمهم معتمدين على الأوقاف التى كانت محبوسة عليهم وعلى «جامع سنكرى» .

وكان علماء «تمبكت» يقبلون فى شغف على إنشاء مكتباتهم الخاصة وبعضهم زادت مكتبته على ألفى كتاب ، كما اقتنى بعض السلاطين مثل هذه المكتبات ، واتصل علماء «تمبكت» بإخوانهم فى الأمصار الإسلامية الأخرى ، فى «القاهرة» و«فاس» و«القيروان» ؛ مما أعطى



مسجد جنى

الحركة الفكرية في «تمبكت» صفة العالمية .

وخلاصة القول أن هذه المدينة كانت مدينة إسلامية منذ نشأتها ، فهي كما قال «السعدى» : ما دَنَسَتْهَا عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ ، وَلَا سَجِدَ عَلَى أَدِيمِهَا لِغَيْرِ الرَّحْمَنِ ، مَاوَى الْعُلَمَاءَ وَالْعَابِدِينَ ، وَمَأْلَفَ الْأَوْلِيَاءَ وَالزَّاهِدِينَ ، وَلِذَلِكَ ارْتَبَطَ تَارِيخُ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي غَرْبِ إِفْرِيقِيَا بِتَارِيخِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ نَفْسَهَا .

٢ - مدينة جنى :

أُسِّسَتْ هذه المدينة على «نهر النيجر» الأعلى فى منتصف القرن الثانى من الهجرة (حوالى سنة ٨٠٠م) وأسلم أميرها «كنبرو» فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى فى عهد المرابطين ، وحذت حذوه الرعية ، وبنى أميرها مسجدها العتيق على نظام المسجد الحرام فى «مكة المكرمة» ، وكان الإسلام والثقافة الإسلامية قد تدفقا إلى هذه المدينة المهمة التى تلى «تمبكت»

فى الأهمية قبل اعتناق «كنبرو» الإسلام ، بدليل أنه أسلم على يد علمائها وفقهائها الذين جمعهم ، وبلغ عددهم حسب رواية «السعدى» ما ينيف عن أربعة آلاف ، وإن كان هذا العدد مبالغاً فيه إلا أنه ليس غريباً ؛ بسبب علاقات مدينة «جنى» التجارية مع بلاد «المغرب» وحوض «السنغال» ، وقد نهضت الثقافة الإسلامية بمدينة «جنى» نهضة كبرى ، يستفاد ذلك مما رواه «السعدى» عن أقام بها

ووفد إليها من العلماء والقضاة ورجال الدين .

٣ - أودغشت :

مدينة قديمة لم يعد لها وجود الآن ، وتعد من المراكز الثقافية الإسلامية المهمة التى كان لها دور كبير فى نشر الإسلام وثقافته فى غربى إفريقيا .

كانت «أودغشت» أول الأمر محطة تجارية لقبيلة «صنهاجة» ، على الحدود الشمالية لمملكة «غانة» الوثنية ، ولما فتح الصنهاجيون جزءاً كبيراً من «غانة» فى نهاية القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى أصبحت «أودغشت» حاضرة لتلك القبيلة القوية ، ثم استولت عليها مملكة «غانة»

الوثنية ، ولكن الصنهاجيين الذين اعتمد عليهم المرابطون أو المثلثون استطاعوا استعادتها عام ٤٤٧هـ = ١٠٥٥م) ، ومنها انطلقت موجات من دعوة المرابطين إلى بلاد «السودان» ، وتأكد دورها فى نشر الإسلام وازدهر بعد سقوط دولة «غانة» الوثنية نفسها عام ٤٦٩هـ = ١٠٧٦م) .

وقد وصفها «البكرى» المتوفى عام ٤٨٧هـ = ١٠٩٤م) بأنها

مدينة زاهرة ، يتألف سكانها من العرب والبربر والسودانيين .

وكان يوجد بمساجدها معلمون لتعليم القرآن الكريم والسنة النبوية وسائر العلوم الإسلامية ، كما كثرت بها المدارس لتعليم الأطفال ، واشتهرت بمبانيها الجميلة وأسواقها العامرة ، وكان يوجد بها بعض الصناعات المعدنية التى بلغت درجة كبيرة من الرقى والإتقان ، كما كانت تتجر فى الأقمشة الحريرية المشاه بالذهب ، مما جعلها مركزاً تجارياً وصناعياً وثقافياً كبيراً ؛ يربض على طرف الصحراء من ناحية الجنوب .

٤ - كانو :

تعتبر هذه المدينة من مراكز الثقافة الإسلامية بغربى القارة ، ومن أهم مدن شعب «الهوسا» شمالى «نيجيريا» الحالية ، ويمكن أن يقال إنه كانت هناك سبع إمارات تابعة للهوسا ، هى إمارات : «كانو» و«رانو» و«زاريا» و«دورا» و«جوبير» و«كتسينا» و«زمفارا» ، وتقع هذه الإمارات فى شمالى «نيجيريا» الحالية ، شرقى ثنية نهر «النيجر» أو بينها وبين بلاد «برنو» .

ويذكر «الحسن الوزان» أن «أسكيا الحاج محمد» ملك «جاو» (صنغى) قتل ملك «الهوسا» وضم البلاد إلى مملكته فى عام ٩١٨هـ = ١٥١٢م) ، ورغم ذلك فقد كان لبعض إمارات الهوسا فضل ثقافى كبير ، فإمارة «كانو» يرجع الفضل إليها فى نشر الإسلام شرقاً حتى «بورنو» ، وإمارة «زاريا» يرجع الفضل إليها فى نشر الإسلام فى أواسط «نيجيريا» ، وقد ظهرت «كانو» و«كاتسينا» كمراكز للثقافة الإسلامية منذ القرن الخامس عشر الميلادى .

وقد تضاعفت الشهرة العلمية لمدينة «كانو» و«كاتسينا» بعد الأحداث التى أصابت مدينة «تمبكت» منذ القرن السادس عشر الميلادى ، وخاصة بعد الغزو المراكشى لها ولمملكة «صنغى» ، وما نتج عن ذلك من هجرة العلماء والطلاب والفقهاء إلى «كانو» وغيرها من مدن «السودان الغربى» العديدة ، ولاتزال تلك المدينة إلى اليوم من أهم مراكز الثقافة الإسلامية فى غربى إفريقيا ، وبها مدرسة للعلوم العربية ومدرسة للقضاء الشرعى والفقهاء الإسلامى .

مسجد الأبيض - السودان

وغيرهم ممن يطرقون بلادهم ، وهذا يؤكد حرص «عبدالله بن سعد» على أن يظل الطريق مفتوحاً خلال مملكة «مقرة» إلى الجنوب؛ حيث توجد مملكة «علوة» التي يمكن نشر الإسلام بها عبر التجار والمسافرين من المسلمين .

المسلمين .
وعندما أغاروا على «أسوان»
بعد ذلك جرد لهم الخليفة «المأمون»
عام (٢١٦هـ = ٨٣١م) جيشًا
بقيادة «عبدالله بن الجهم» ، وانتهى
الأمر بعقد صلح جديد بينه وبين
ملكهم «كنون بن عبدالعزیز» ،
ومن أهم شروطه أن تكون بلاد
«البجة» من حدود «أسوان» إلى ما
بين «دهلك» و«مصوع» ملكًا

وأثناء انصراف «عبدالله بن سعد»
من «النوبة» تعرض له «البجة» أو
«البجة» ، ويبدو أنه لم يصطدم بهم
لهوان شأنهم في نظره ، لأنه لم
يكن لهم ملك يمكن الرجوع إليه ،
وكانت أوطان هذا الشعب تمتد في
الصحراء الشرقية بين «النيل» و«البحر
الأحمر» من حدود جنوب «مصر»



لكنه لم يتمكن من فتحها ، ثم غزاها «عبدالله بن سعد بن أبي السرح» والى مصر عام (٣١هـ = ٦٥١م) ، ووصل في زحفه حتى «دنفلة» عاصمة مملكة «مقرة» المسيحية ، وعقد معهم صلحاً عُرفَ باسم «البقط» ، وتدل نصوص هذا الصلح على أنه يهدف إلى التسامح الديني وحسن الجوار ، ولا يعكس تبعية «دنفلة» لمصر الإسلامية ، أى لم يكن في حقيقته

للخليفة ، وأن يكون «البجة»
وملكهم أتباعاً له ، مع بقاء هذا
الملك فى منصبه ويتعهدون بعدم منع
أى مسلم من دخول بلادهم بقصد
التجارة أو الإقامة أو الحج ، وأن
يؤدى ملك «البجة» ما عليه من
الخراج .

وهكذا فتحت معاهدة البقط الباب أمام الهجرات العربية لاجتياز مملكة «مقرة» دون الإقامة بها ، فى طريقها إلى وسط «السودان النيلي» أو ما عرف باسم «مملكة علوة» بينما

سلطنة الفونج الإسلامية في سنار

[٩١٠ - ١٢٣٦هـ = ١٥٠٥ - ١٨٢٠م]

اختلف الباحثون في أصل «الفونج»، فقليل إنهم من سلالة عربية أموية هربت من وجه العباسيين، وأنهم جاءوا إلى «الحبشة» أولاً ومنها إلى «السودان الشرقي» (النيلي)؛ حيث تصاهروا مع ملوك «السودان»، وظهرت نواة إمارة «الفونج» عقب القضاء على مملكة «دنقلة» المسيحية، وتسرب العرب على نطاق واسع إلى مملكة «علوة» المسيحية، واتسع نطاق هذه



الإمارة غرباً، ووصل إلى أطراف منطقة الجزيرة من الشرق، ثم تم التحالف بين هذه الإمارة النامية في عهد أميرها «عمارة دونقس» (٩١١ - ٩٤١هـ = ١٥٠٥ - ١٥٣٤م) وبين عرب «القواسمة» الذين ينتمون إلى مجموعة «الكواهلة» في عهد زعيمهم وشيخهم «عبدالله جماع».

وقد كان لهذا التحالف نتائج مهمة في تاريخ «سودان وادي النيل»:

أولها: قضاء الحليفين على مملكة «علوة» المسيحية عام (٩١١هـ = ١٥٠٥م).

وثانيها: قيام مملكة «العبد لاب» التي اتخذت مدينة «قرى» حاضرة لها، ثم انتقلت منها إلى «حلفاية»، وشاركت «الفونج» في السيطرة على القسم الشمالي من البلاد وامتد ملكهم من مصب «ندرد» إلى حدود بلاد «دنقلة».

وثالثها: قيام مملكة «الفونج» الإسلامية التي كان «عمارة دونقس» أول سلطان لها وامتدت من «النيل الأزرق» إلى «النيل الأبيض».

وقد بلغت هذه السلطنة أوج مجدها في عهد السلطان «بدي الثاني أبو دقن» (١٠٥٢ - ١٠٨٨هـ = ١٦٤٢ - ١٦٧٧م)؛ إذ امتدت رقعتها من «الشلال الثالث» إلى «النيل الأزرق»، ومن «البحر الأحمر» إلى «كردفان»، واستمر توسع هذه الدولة طيلة القرن الثامن عشر الميلادي في عهد الملك «بدي الرابع». غير أنه قبيل نهاية ذلك القرن ظهرت عوامل الضعف في هذه السلطنة، عندما تصدعت عرى

التحالف بين سلاطين «الفونج» و«عرب القواسمة»، كما كان لاستبداد الوزراء والقواد أثره في القضاء على هذه الدولة، فقد استطاع «محمد بن أبي لكيلك كتمور» المتوفى سنة (١١٩٠هـ = ١٧٧٦م) أن يعزل السلطان «بدي الرابع» ويولي غييره، وبدأت الانقسامات الداخلية والحروب الأهلية؛ فأدت إلى انحلال الأسرة المالكة، حتى جاء الفتح المصري في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي في عهد «محمد علي باشا».



أكواخ من الخوض تسكنها القبائل التي نزحت من شبه جزيرة العرب بشمال السودان - مدينة الأبيض

إلى داخل «السودان» حتى بلاد «الحبشة» و«دارفور»، واستقر كثير منهم في أرض «مملكة علوة» المسيحية وأسسوا مدينة «أربجي» على الشاطئ الغربي من النيل الأزرق عام (٨٧٩هـ = ١٤٧٤م) ومع توالي الهجرات العربية إلى مملكة «علوة» وازدياد نفوذها، عمل ملوك «علوة» على استمالتهم بالمصاهرة، فانتقل الحكم إلى «جهينة» عن هذا الطريق، كما حدث في مملكة «النوبة» من قبل، وخاصة بعد أن تحالف هؤلاء العرب مع «الفونج» القادمين من الجنوب، وقضوا على مملكة «علوة» نهائياً في مستهل القرن السادس عشر الميلادي وبذلك انتهت ممالك «النوبة» أو ممالك «السودان الشرقي» (النيلي) المسيحية، وبدأ عهد جديد في تاريخ تلك البلاد ظهرت فيه عدة ممالك أو سلطنات إسلامية من أهمها:

بالنوبة و«البجة». وقد حرص رؤساء العرب على التزوج من بنات «البجة» و«النوبة»؛ مما أدى إلى انتقال الرئاسة إليهم وفقاً لنظام الوراثة عن طريق الأم، وقد استطاعوا إقامة أول إمارة إسلامية عربية كان مقرها في «أسوان» في عهد الفاطميين، وخلع الخليفة «الحاكم بأمر الله الفاطمي» على أمير «ربيع» لقب «كنز الدولة» فعرف «بنو ربيعة» في «أسوان» و«النوبة» ببنى كنز، واستطاع هؤلاء أن يصهروا إلى البيت المالك النوبي في «دنقلة»، وتبعاً لذلك انتقل الحكم هناك إلى «بنى كنز» وأعلنوا استقلالهم عن الدولة المملوكية في «مصر» سنة (٧٢٣هـ = ١٣٢٣م). وبذلك ظهرت أول إمارة إسلامية في بلاد «السودان الشرقي»، وتدفقت موجات من العرب ولاسيما من عرب «جهينة»

سمحت المعاهدة مع «البجة» للهجرات العربية بالاستقرار والإقامة فيما بين حدود «مصر» الجنوبية وحتى «مصر»، وبهذا أصبح الباب مفتوحاً للإسلام والثقافة العربية للتوغل في وسط «السودان النيلي» وحتى حدود «الحبشة» الشمالية.

وقد أثرت أحداث العالم الإسلامي؛ وخاصة الصراع بين الأمويين والعباسيين، وظهور العناصر الأخرى من الفرس وغيرهم على المسرح السياسي واستبدادهم بالسلطة والنفوذ، في هجرة الكثير من القبائل العربية إلى الجنوب، وقد انتهزت تلك القبائل فرصة الحملة التي أعدها «أحمد بن طولون» والى «مصر» إلى أرض «النوبة» و«البجة» فاشترك فيها كثير من العرب وخاصة من «ربيع» و«جهينة»؛ حيث استقروا في هذه المناطق ونشروا الإسلام واختلطوا

وقد اتخذت سلطنة «الفونج» مظهرًا إسلاميًا منذ البداية ، فقد استهلت حياتها بالإسهام في حركة الجهاد الإسلامي ، وساعدت العرب في القضاء على مملكة «علوة» المسيحية ، وبذلك تدفّق الإسلام في وسط «السودان» ، ومنه إلى الجنوب والغرب .

كما أسهموا في محاربة الوثنيين داخل «السودان» نفسه ، فقد حاربوا أهل جبال «النوبا» بسبب غاراتهم على «كردفان» ، واستمروا في حربهم زمنًا طويلاً حتى انتشر الإسلام في كثير من مناطق هذه الجبال في غربي «السودان» .

كما حارب «الفونج» «الشلك» (أو الشلوك) للغرض نفسه ، بل شاركوا في حركة الجهاد الإسلامي ضد الأحباش في القرن الثامن عشر الميلادي فقد قضوا على بعثة فرنسية كانت قد قدمت إلى «الحبشة» ، بهدف مساندتها في حربها ضد المسلمين عام (١١١٧هـ = ١٧٠٥م) ، كما اشتبكوا مع الأحباش في عهد الملك «بادي الرابع أبو شلوك» سنة (١١٥٧هـ = ١٧٤٤م) ، وكانت جيوش «الفونج» بقيادة شيخ «قرى» التي كان يتولى إمارتها الشيخ «محمد أبو اللكيلك» كبير الهمج (الهمق) ، الذي قضى على دولة «الفونج» فيما بعد ، وقد

انتصر هؤلاء القواد على جيش «الحبشة» ، وكان لانتصارهم هذا دوى هائل في العالم الإسلامي المعاصر في «مصر» و«الشام» و«الحجاز» و«تونس» و«استانبول» و«الهند» . ولم يسهم «الفونج» في نشر الإسلام عن طريق الجهاد فحسب ، إنما استعانوا بالوسائل السلمية التي كانت الأصل في غالب الأحوال وكان لرواد الدعوة الذين وفدوا من «الحجاز» و«المغرب» و«مصر» و«العراق» إلى جانب الدعاة الوطنيين فضل كبير في هذا السبيل فالحج والتجارة بين «الحجاز» و«السودان» كانا من أكبر ماهياً للسودان نشر الدعوة . وكان حجاج «السودان» يشجعون علماء «الحجاز» على الرحلة إلى بلاد «الفونج» ، كما أن كثيراً من السودانيين كانوا يتلقون العلم في «مكة» و«المدينة» . أما «المغرب» فكان منبعاً آخر للثقافة الإسلامية أما «مصر» فكانت علاقة «السودان» بها في ذلك الحين أقل من تلك التي كانت بينه وبين «الحجاز» و«المغرب» ومع ذلك تطلّع ملوك «الفونج» إلى «الأزهر» وعلمائه ورحبوا بهم ، وكان بعض السودانيين يذهبون إلى «الأزهر» ثم يعودون إلى بلادهم ناشرين الإسلام وثقافته .

وقد رحل أحدهم وهو الفقيه «محمد الجعلي» إلى منطقة جبال «النوبا» التي تقع جنوب «كردفان» مع مجموعة من الفقهاء ؛ للدعوة إلى الإسلام في أوائل القرن السادس عشر الميلادي واستطاع أن يتزوج أميرة من البيت الحاكم هناك ، فانتقل الحكم إلى ابنه المسمى «قيلي أبو جريدة» . وقد أسس هذا الابن أول أسرة إسلامية حاكمة في جبال «النوبا» ، سنة (٩٢٦هـ = ١٥٢٠م) عرفت باسم مملكة «تقلي» ، وكان هو أول سلاطينها .

كذلك كان لسلطنة الفونج وعاصمتها اتصال بدارفور التي كانت تستعين بفقهاء «سنار» في نشر الدعوة ، وكان للفونج اتصال أيضاً بالبasha التركي في موانئ البحر الأحمر في «سواكن» و«مصوع» ؛ حيث كان له وكلاء في «سنار» و«أربجي» ، وكذلك اتصلوا باليمن وغيره من الأمصار الإسلامية ؛ مما يدل على عمق الروح الإسلامية التي تغلغت في مملكة «الفونج» .

وتظهر هذه الروح الإسلامية في معاملتهم الحسنة لرجال العلم ، وفي احترامهم وإحاطتهم بالرعاية والتكريم ، فرحل إليهم كثير من علماء المناطق النائية ، وعاشوا في جوارهم ، مما كان له أثر كبير على مسيرة الإسلام في هذه السلطنة .

سلطنة دارفور الإسلامية

[٨٤٩ - ١٢٩٢هـ = ١٤٤٥ - ١٨٧٥م]

بلاد «دارفور» عبارة عن هضبة تنتشر فيها المراعي وتخللها بعض المرتفعات ، ويتألف سكانها من العنصر الزنجي والعنصر الحامي ، وكانت هذه البلاد مستقراً للشعب يُسمى شعب «الداجو» ، وفد عليها من الشرق أو من «جبال النوبا» الواقعة غرب «النيل الأبيض» قبل القرن الثاني عشر الميلادي وأسس فيها ملكاً .

وفي القرن الثاني عشر الميلادي دخل هذه البلاد عنصر مغربي من «تونس» يمثل في «شعب التنجور» أو «عرب التنجور» ، وهم عنصر من البربر و العرب ، وقد خالط هؤلاء شعب «الداجو» وصاهروهم ، وتنج عن ذلك وجود جنس مختلط يُسمى شعب الفور استطاع أن يصل إلى الحكم .

كان أول السلاطين المولدين من «الداجو» و«التنجور» هو «أحمد المعقور» الذي تزوج من ابنة ملك «دارفور» الوثني ، بعد أن أثبت جدارته في الإشراف على شئون بيت الملك ، وقد اتخذ الملك مستشاراً ، ولما لم يكن للملك أبناء ذكور ، فقد زوج ابنته لأحمد المعقور ، وعينه خليفة له ، فتأسست بذلك أول سلطنة إسلامية في «دارفور» .

ولقد اقترنت إصلاحات السلطان «أحمد» وأولاده من بعده بنشاط ملحوظ في نشر الدعوة الإسلامية ، على أن «دارفور» لم تدخل في الإسلام حقاً إلا نتيجة جهود أحد ملوكها وهو «سليمان

سولون» الذي وصل إلى الحكم نتيجة لإحدى الهجرات العربية التي وفدت على «دارفور» منحدرة من «وادي النيل» في القرن الخامس عشر الميلادي وأصهر هؤلاء العرب إلى سلاطين «الفور» ، كما أصهروا إلى ملوك «النوبة» من قبل .

وكان «سليمان سولون» وليد هذه المصاهرة ، وتمكن من اعتلاء عرش «دارفور» (٨٤٩ - ٨٨١هـ = ١٤٤٥ - ١٤٧٦م) ، وفتح البلاد للهجرات العربية ، فوفدت قبائل «الجبانية» و«الزبيقات» و«المسيرية» و«التعايشة» و«بنو هلبة» و«الزبيدية» و«المهريّة» و«المحاميد» و«بنو حسين»



وفي عهد خلفاء «عبدالرحمن الرشيد» كان من الممكن أن تتسع السلطنة إلى آفاق أوسع لولا التوسع المصرى فى القرن التاسع عشر الميلادى ، ذلك التوسع الذى قضى على هذه السلطنة عام (١٢٩٢هـ = ١٨٧٥م) فى عهد الخديوى «إسماعيل» .

واصبغت هذه السلطنة بالصبغة الإسلامية الواضحة ؛ حيث عمل سلاطينها على ربط بلادهم بالعالم الإسلامى المعاصر، وتوثقت به صلاتهم الثقافية والدينية ، فوصل طلاب «دارفور» إلى «مصر» والتحقوا بالأزهر ، حيث أنشئ لهم رواق خاص بهم .

وكان سلاطين «دارفور» رغم ندرة أخبارهم ينهجون نهجاً



جامع طره - بناء السلطان موسى ابن سليمان فى جبل مره

وقد وصل نفوذ الدولة أقصاه فى عهد السلطان «عبدالرحمن الرشيد» (١١٩٢ - ١٢١٤هـ = ١٧٧٨ - ١٧٩٩م) ، الذى نقل العاصمة إلى مدينة «الفاشر» ، واتصل بالسلطان العثمانى واعترف بسيادته ، فمنحه لقب «الرشيد» .

وغيرهم ، وبفضل هؤلاء العرب المهاجرين إلى «دارفور» ، اصبغت السلطنة بالصبغة الإسلامية الواضحة ، وعمد السلطان «سليمان سولون» إلى تشييط الحركة الإسلامية ، عن طريق استدعاء الفقهاء من الشرق ليعلموا الناس أصول دينهم ، كما شجع التجارة وأسس المساجد والمدارس .

وبدأت الدولة تتسع ، فامتد سلطانها إلى «كردفان» فى عهد السلطان «تيراب» (١٧٦٨ - ١٧٨٧م) ، وبلغت أقصى اتساعها، فكان حدها من الشمال «بئر النترون» فى الصحراء الكبرى، ومن الجنوب «بحر الغزال» ، ومن الشرق «نهر النيل» ، ومن الغرب «منطقة وادى» .



إسلامياً، فيلتزمون بأحكام الكتاب والسنة ، ويحرصون على تحرى العدل فى أحكامهم ، كما حرصوا على تشجيع العلماء ومنحهم الهدايا ، وعملوا على نشر العلم فى بلادهم ، ويذكر «التونسي» أخباراً كثيرة عن العلماء والفقهاء الذين وفدوا على «دارفور» لما وجدوه فيها من تشجيع وعدالة وكرم واحترام .

ومن مظاهر ارتفاع مكانة العلماء فى سلطنة «دارفور» الإسلامية أن مجلس السلطان كان لا يتم إلا بحضورهم ، وكانوا يجلسون عن يمينه ، ويجلس الأشراف وعظماء الناس عن يساره، وعند موت السلطان واختيار سلطان جديد كان هؤلاء العلماء يدخلون ضمن مجلس الشورى الذى ينعقد لهذا الغرض ، وإذا حدث تنازع كان لا يتم حسمه إلا على أيديهم ، وكان السلاطين يكثررون من الإنعام عليهم ويقطعونهم الإقطاعات الواسعة حتى يتفرغوا للعلم والدرس ، ولم يكن هذا التشجيع وقفاً على السلاطين وحدهم ، فقد شارك فيه الأهالى؛ حيث كان سكان الحلة القرية يسارعون لمقابلة العلماء الوافدين ويستضيفونهم ، كما كانوا يستضيفون الطلبة الغرباء فى بيوتهم ويعاملونهم كأبنائهم أو ذوى قرياهم .



جامع السلطان على دينار

ومن المظاهر الإسلامية التي وضحت في سلطنة «دارفور» أن سلاطينها كانوا يتلقبون بألقاب إسلامية مثل «أمير المؤمنين» ، و«خادم الشريعة» ، و«المهدي» و«المنصور بالله» ، كما كانوا يحرصون على النسب العربي كعادة الحكام في كل ممالك «السودان» ، كما أن أختامهم التي يختمون بها كتبهم ورسائلهم كانت تحمل آية من القرآن ، وكانوا يحرصون على إرسال محمل الحرمين الشريفين كل عام إلى «مكة» و«المدينة» ، فكانت قافلة المحمل ترسل إلى «مصر» محملة بالبضائع ، مثل ريش النعام وشن الفيل والصمغ وغير ذلك من منتجات البلاد ، فتباع ويتكون من ثمنها نقود الصرة التي تحملها القافلة المصاحبة لقوافل الحجاج المصريين إلى الأراضي المقدسة ، وهكذا نرى أن الحياة الإسلامية كانت زاهرة في سلطنة «دارفور» الإسلامية.

الطابع الإسلامي والثقافة العربية

في سودان وادي النيل

يمثل عصر «سلطنة الفونج» في «سنار» أو في «وسط السودان» و«سلطنة دارفور» في «غربي السودان» عصر الازدهار الإسلامي في ذلك الوقت . فقد امتزجت التقاليد الإسلامية الوافدة بالتقاليد

المحلية سواء في نظم الحكم أو في الحياة الاجتماعية أو الثقافية ، ونشأ لون جديد من الحضارة إسلامية الصورة سوداني الطابع مثلما حدث في «بلاد السودان الغربي» والأوسط (غرب إفريقيا) .

فالفونج عملوا على إقامة الشريعة الإسلامية لكنهم انتهجوا في الحكم نهجاً محلياً صرفاً ، يتميز باللامركزية الصرفة ؛ حيث سمحوا للأمراء المحليين بالاستقلال الذاتي . ولم يكن سلطان سنار يحتفظ بأكثر من تعيين الأمرأ أو فرض الإتاوة ، وتظهر التقاليد المحلية في طريقة التتويج أو التعيين

حين يحضر الأمير إلى «سنار» ويحتفل به السلطان على «الكر» (أي كرسي العرش) ويلبسه طاقية لها ذئبتان عن اليمين والشمال محشوتان بالقطن كأنهما قرنان ، ويمنحه سيقاً ، وهي تقاليد نوبية قديمة ، ثم يذهب الأمير بعد انتهاء مراسم التتويج إلى مكان معين في انتظار دابة تخرج من الأرض يتفأل بخروجها ، إلى غير ذلك من التقاليد السودانية .

والحياة الإسلامية في «دارفور» خضعت لهذا التطور نفسه ، فقد تمسك السلاطين بالكتاب والسنّة

وطبقوا الشريعة الإسلامية تطبيقاً تاماً ، ولكنهم لم يهملوا التقاليد المحلية التي تمثلت في قانون «دالي» ، وهو مجموعة من الأحكام العرفية كان يقوم بتنفيذها حكام الأقاليم والقاضى الأعظم ، وهو كبير الحصيان الملقب بأبى شيخ .

وهذا القانون ينص على وراثة الملك وعلى إقامة الحدود ودفع الغرامات من الأبقار التي يملكونها بكثرة . وكان لهم تقاليد خاصة في جلوس السلطان على كرسي العرش ، ففي يده اليمنى صولجان ، وفي اليسرى سيف مستقيم ، وعلى جنبه الأيسر سيف

محبب ، وفي الدخول عليه يخلع الداخل الطاقية والسلاح ويلقى بنفسه على الأرض ويحبو على ركبتيه ويديه كالسلحفاة .

أما في ميدان الثقافة فلم يكن للسودان ثقافة قديمة ، كما كان في «مصر» وبلاد «الشام» و«العراق» ، ولذلك كانت ثقافة «السودان» عربية إسلامية خالصة ، لكنها تأثرت بعاملين :

الأول : ضعف النهضة الإسلامية في هذا العصر عموماً ، وغرق الأمة في الدراسات الصوفية التي انتشرت طرقها في شتى بلدان العالم الإسلامي ؛ ولقيت في «السودان» جواً ساعداً على النمو والازدهار .



وهناك أيضًا مدينة «سنار» وهي أعظم المراكز الثقافية في ديار «الفونج» وكانت مركزًا تجاريًا قبل كل شيء فقد عرفت بغناها الوافر وتجارتها الرباحة ، وكان التجار يجلبون إليها البضائع من «مصر» و«الحجاز» ، وكان يجلب إليها من «كردفان» التبر والحديد والرقيق ،

على أن أعظم هذه المراكز في
المنطقة الشمالية وأوسعها نفوذاً

«النیل الأزرق» و«الابیض»
و«کردفان» و«دارفور» .

والطريقة الثانية هي الطريقة
«الشاذلية»، المنسوبة إلى «أبي
الحسن الشاذلي» (٥٩٢ - ٦٥٦هـ =

كثير من أبناء هذه العشيرة يرحلون إلى «القاهرة» أو «مكة» طلباً للعلم،

ثالثاً - الإسلام في شرق إفريقيا

يقصد بتاريخ الإسلام في شرق إفريقيا السلطنات الإسلامية التي ظهرت في بلاد «الحبشة» و«الزيليغ» في العصور الوسطى، مثل «سلطنة شوا» و«أوفات» و«عدل»، وتلك التي ظهرت على طول الساحل الشرقي من القارة جنوب «الحبشة» حتى «نهر الزمبيزي» في «موزمبيق». مثل سلطنة «مقديشيو» و«بات» و«كلوا».

أ - الإسلام والسلطنات الإسلامية في بلاد الحبشة والزيليغ

(منطقة القرن الإفريقي)

كان للحبشة صلات قديمة مع بلاد العرب قبل الإسلام، وهي صلات تجارية وسياسية وحربية، تتمثل في التجارة وفي غزو الأحباش لبلاد «اليمن»، ولم يقطع الإسلام هذه العلاقات وإنما زادها قوة، فاتصل الإسلام بالحبشة يرجع إلى السنة الخامسة من البعثة حين هاجر بعض المسلمين إلى «النجاشي» اعتصاماً بعدله ونجاة من أذى «قريش» وعدوانها.

ثم بدأت الدولة الإسلامية تحتك بالحبشة في عهد «عمر بن الخطاب» الذي أرسل إليها في عام (٢٠هـ = ٦٤١م) سرية بقيادة «عقمة بن مجزز المدلجي»، كان نصيبها الفشل، ويرى بعض الباحثين أن أخبار هذه الحملة لا تتفق مع علاقات الود التي سادت بين الأحباش والمسلمين منذ أيام الرسول ﷺ، ولم يكن «عمر» بالرجل الذي يخرج على أمر قرره الرسول، والتعليل الصحيح لإرسال هذه السرية أنها أرسلت لرد إغارات قراصنة البحر من الأحباش الذين كانوا قد أغاروا على ساحل بلاد «الحجاز» مرة في عهد الرسول ﷺ، ومرة أخرى في عهد «عمر بن الخطاب» نفسه، وذلك بعد أن مات



ممالك الزيليغ والحبشة في العصور الوسطى

العالم الإسلامي من نحو وصرف وبيان وبديع وعروض ومنطق وتوحيد وتفسير وحديث وفقه وتصوف وجبر ومقابلة وتاريخ، ولكن كان أعظمها شأنًا هو علم الفقه والتوحيد. وقد ظلت الثقافة الإسلامية مزدهرة طوال ثلاثة قرون في أرجاء «السودان النيلي»، ولكن التعصب القبلي والتنازع على الحكم وسياسة العزلة التي فرضها حكام «الفونج» في القرن الثامن عشر الميلادي أدى إلى انحلال هذه السلطنة، واستطاع «محمد علي» حاكم «مصر» أن يقضى عليها في عام (١٣٧٦هـ = ١٩٥٦م).



أما معاهد التعليم في «السودان» في ذلك العصر فهي: المسجد، والزاوية، والخلوة. والخلوة أو الكتّاب أو المكتب من أقدم هذه الأماكن وهي منتشرة في جميع القرى، وعرفها أهل «السودان» على بداية عهد «الفونج» على يد الشيخ «محمود العركي»، الذي قد من «مصر» عام (٩٢٦هـ = ١٥٢٠م)، وأسس خمس عشرة خلوة في «سنار» وعلى «النيل الأبيض» وكان يُدرّس فيها القرآن ويتعلم فيها الأطفال القراءة والكتابة ومبادئ الحساب فيما يمكن أن نطلق عليه المرحلة الأولية أو الابتدائية.

وفي المساجد كان الطلاب يدرسون فيما يشبه المرحلة الثانوية أو العليا، وفيها كانوا يدرسون العلوم الدينية وعلوم العربية والتاريخ؛ حيث يلتف الطلاب حول شيوخهم في حلقات دراسية.

أما الزاوية فهي تتميز عن الخلوة والمسجد بأنها تجمع بين السكنى والعبادة والدرس، ففيها ينقطع الطلاب للدرس والعبادة، وهي غالبًا للصوفية، وكانت في زمن «الفونج» منتشرة في جميع البلاد.

وكانت الطريقة التعليمية في ذلك العهد تعتمد في جملتها على الاستظهار والحفظ كما في سائر البلدان الإسلامية، وعرف «السودان» معظم العلوم التي عرفها

وقد أجمع كتاب القرن العاشر الميلادي مثل «المسعودي» و«ابن حوقل» وغيرهما على ازدهار الحياة الإسلامية في تلك المدن وتوطد النفوذ الإسلامي على طول الساحل الساحلي ، وقد ظهرت مدن إسلامية على ذلك الساحل كأنها العقد أو الطراز في الفترة بين القرن العاشر والثالث عشر الميلادي .



وقد أصبحت هذه المدن الإسلامية الساحلية مراكز وثب منها التجار والدعاة إلى المناطق الداخلية في بلاد الزيلع والحبشة ؛ إذ كان هؤلاء يرحلون إلى المناطق الداخلية التماساً للتجارة ويقيمون بعض الوقت ثم ينحدرون إلى الساحل من جديد ، وفي أثناء إقامتهم يخاطبون الناس وينشرون الإسلام ويوطدون صلتهم بالطبقة الحاكمة .

ويبدو أن الإسلام نفذ إلى الداخل في وقت مبكر ، ربما في القرن الثالث الهجري حين تطرق إلى منطقة «شوا» حيث قامت سلطنة إسلامية عملت على نشر الإسلام في جنوب وشرق الحبشة ، وقد ألقى ضوء جديد على تاريخ هذه السلطنة حينما عثر المستشرق الإيطالي «تشيروल्ली» على مختصر لتاريخها يؤرخ للخمسين عاماً من عمرها (١٣م) .

في شرقي إفريقيا ، فقد ترك الإسلام يتسرب إلى البلاد تسرباً سلمياً بطيئاً في ركاب المهاجرين إلى إفريقيا من التجار والدعاة عبر المسالك البحرية المعهودة .

كانت عودة العلاقات التجارية بين «الحبشة» وبلاد العرب ، واتساع دائرتها وخاصة في تجارة الرقيق ، بسبب إقبال الإمارات المستقلة في الأمصار الإسلامية المختلفة على الاستعانة بالجنود السودانيين عوضاً عن جنود العرب الذين تفرقوا في الأمصار ، وكان لذلك أثر كبير في نمو المدن الساحلية الزيلعية التي ازدحمت بهؤلاء الوافدين من تجار المسلمين .

وظهرت في هذا العصر جاليات إسلامية قوية في «دهلك» و«سواكن» و«باضع» و«زيلع» و«بربرة» .

«النجاشي» الذي استقبل المهاجرين واعتنق الإسلام سرا ، وأعقبه «نجاشي» آخر لم يرع هذه العلاقات الطيبة بين المسلمين و«الحبشة» ، وقد عاد الأحباش إلى الإغارة على «جدة» عام (٨٣هـ = ٧٠٢م) في عهد «بنى أمية» ، فلم يجد العرب بداً من الحصول على قاعدة بحرية قريبة من الشاطئ الإفريقي تمكنهم من رد غارة هؤلاء الأحباش ، فاستولوا على جزر «دهلك» وأقاموا فيها ، وقد وجدت فيها نقوش عربية يرجع تاريخها إلى منتصف القرن التاسع الميلادي . ويبدو أن المسلمين انسحبوا من هذه الجزر بعد ذلك ، لكنهم تركوا بها جالية من المسلمين من أهل البلاد ، فكانت جزر «دهلك» أول رأس جسر يقيم المسلمون على الساحل الشرقي لإفريقيا ، ويبدو أن هذه كانت آخر محاولة للتدخل الرسمي

١ - سلطنة شوا الإسلامية

(٢٨٣ - ٦٨٤هـ = ٨٩٦ - ١٢٨٥م)

أسست هذه السلطنة على يد أسرة عربية تسمى «بنى مخزوم» سنة (٢٨٣هـ = ٨٩٦م) ، وليس ثمة شك في أن هؤلاء كانوا عرباً هاجروا إلى هذه الجهات في ذلك الوقت المبكر ، وليس بعيداً أن يكونوا قد نزلوا أول الأمر في ضيافة إمارة محلية ، واشتغلوا بالتجارة ثم اختلطوا بالأمرء عن طريق المصاهرة حتى آل إليهم الملك آخر الأمر .

مثل الوزراء والقضاة ، يتضح ذلك من الوثيقة المذكورة التي عني المؤرخ فيها بتسجيل وفاة الفقيه «إبراهيم بن الحسن» قاضي قضاة شوا في رمضان (٦٥٣هـ = أكتوبر ١٢٥٥م) ، مما يدل على وجود حياة علمية ودينية زاخرة ، شأنها في ذلك شأن السلطنات الإسلامية الأخرى مما يجعلنا نقول إن هذه السلطنة عاشت عصراً زاهراً كبيراً ، وأنها عاشت مستقلة عن جيرانها سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين .

والسبب الذي أتاح لهذه السلطنة ذلك الاستقلال وهذا الهدوء مع دولة الحبشة ظروف الحبشة نفسها ، فقد كانت تعيش حياة مليئة بالاضطراب السياسي وعدم الاستقرار ، فقد كانت مملكة «أكسوم» الحبشية القديمة في أواخر أيامها عندما نشأت سلطنة شوا الإسلامية ، ولذلك لم تتمكن «أكسوم» من التصدي لتلك الدولة أو تمنع قيامها في جزء من الهضبة الحبشية ذاتها لبعدها «أكسوم» التي كانت تقع في أقصى الشمال ،

وهذا الازدهار العمراني الحضاري الذي تمتعت به سلطنة شوا الإسلامية كان نتيجة لما تملكه من أرض غاية في الخصوبة استغلها السكان وزرعوا فيها ما يكفي حاجتهم ويسد مطالبهم ، خاصة أنه قد استمر توافد الجماعات الإسلامية المهاجرة في أعداد يسيرة ، واستطاعت أن تتجمع وتدعم كيان هذه السلطنة الإسلامية بزعامة هذه الأسرة العربية التي اتخذت من «وللّه» عاصمة لها ، والتي يصعب تحديد موضعها الآن نتيجة لكثرة التغيرات التي تعرضت لها المنطقة .

ونتيجة لهذا الازدهار لم تكن الدولة المخزومية في «شوا» إمارة أو مملكة صغيرة ، بل كانت سلطنة كبيرة ، توالى على حكمها كثير من الحكام الذين اتخذوا لقب سلطان كما أشارت إلى ذلك وثيقة «تشيروल्ली» .

هذا وقد ظهر في هذه السلطنة الوظائف السياسية والدينية المعروفة وقتذاك في بقية الدول الإسلامية

وأيا كان الأسلوب الذي انتقل به الحكم في «شوا» إلى هذه الأسرة العربية المخزومية ، فقد أدى ذلك إلى قيام «سلطنة شوا الإسلامية» ، التي استمرت أربعة قرون من الزمان في الفترة (٢٨٣-٦٨٤هـ = ٨٩٦ - ١٢٨٥م) تمتعت في معظمها بالأمن والاستقرار وازدهار العمران ، وكثرة المدن والقرى . والنواحي ، حتى إن وثيقة «تشيروल्ली» ذكرت أكثر من خمسين اسماً لمواقع كانت موجودة ، ووقعت على أرضها أحداث مهمة .

ومن أمثلة هذه المدن أو النواحي مدينة «وللّه» العاصمة ، ومدن هكله (هجلة) وجداية ، ودجن ، وأبتا ، ومورة ، وحديّة (لعلها مملكة هدية الإسلامية) والزناثير ، والمحرة ، وعدل التي أصبحت عاصمة لمملكة إسلامية في القرن الخامس عشر الميلادي ، مما يدل على أن هذه السلطنة اتسمت بسعة المكان وازدهار العمران وكثرة المدن والبلدان .

بينما كانت دولة «شوا» في أقصى الجنوب ، ولذلك لم يحدث بينهما أى نوع من أنواع العلاقات ، سواء أكانت ودية أم عدائية .

ومن الأسباب التي أتاحت الهدوء لهذه السلطنة ما حظيت به من موقع حصين فقد كان يحيط بها جبال وعرة تحف بمجرى نهر تكازى الأعلى من ناحية اليمين ، والنيل الأعلى من جهة اليسار ، وهذه الجبال جعلت من «شوا» حصناً آمناً يوفر الحماية لمن يسكنه .

وقد استغل بنو مخزوم هذا الهدوء وهذا السلام اللذين تمتعوا بهما حوالى ثلاثة قرون ونصف قرن من الزمان في تنمية قدرات السلطنة الاقتصادية والسياسية والدينية ، فصار لها نفوذها في المناطق المجاورة وخاصة المناطق الإسلامية التي تقع إلى الشرق منها وهي سبغ ممالك صغيرة قامت في القرن الثالث عشر الميلادي .

كما كان لها دورها الديني أيضاً ، من ذلك أن أحد سلاطينها ويسمى (حربور) بذل جهوداً كبيرة لنشر الإسلام صوب الداخل وخاصة في «جبلة» في سنة (٥٠٢هـ = ١١٠٨م) ، وفي بلاد «أرجبة» ، وأن هذه البلاد بعد إسلام أهلها أضيفت إلى أملاك سلطنة «شوا» المخزومية ، أى أن هذه السلطنة كانت من المراكز التي ساعدت على نشر الإسلام وثقافته في هذه المنطقة .

وقد حافظ الأهالي من الأحباش على إسلامهم ، سواء أكانوا من أحباش شوا أم من أحباش المناطق المجاورة لها ، وذلك رغم الاضطهاد الشديد والمستمر الذي تعرض له المسلمون في القرن الإفريقي على يد ملوك الحبشة (إثيوبيا) منذ عام (٦٦٩هـ = ١٢٧٠م) .

ولكن سيطرة «شوا» على جيرانها المسلمين لم تستمر طويلاً أمام اضطراب أحوالها وكثرة الفتن الداخلية التي جعلتها تسير في طريق الضعف وخاصة في الخمسين عاماً الأخيرة من عمرها ، ولذلك انتهز حكام «أوفات» الإسلامية الفرصة وأغاروا عليها وأسقطوها وضموها إلى دولتهم .

وطبيعى أن لسقوط سلطنة «شوا» الإسلامية أسباباً ، وعوامل أدت إليه ، أهمها :

العوامل الاقتصادية : وتتمثل في ظروف طبيعية جغرافية حدثت في الثلاثين عاماً الأخيرة من عمر الدولة ، وأدت إلى نقص مياه الأمطار بدرجة نتج عنها حدوث مجاعات ، وطواعين فتكت بالناس فتكاً ذريعاً ، وأضعفت الدولة وسكانها أمام أى هزات داخلية أو خارجية .

سوء الأحوال السياسية : ويتمثل في الصراع الداخلي بين أمراء الأسرة المخزومية على الحكم ،

وكثرة المتمردين والمغتصبين لعرش السلطنة ، وكثرة الحروب الأهلية ، وما كان ينتج عنها من إحراق المدن وتدميرها ونهبها وقتل كثير من سكانها .

ولم يظهر الصراع الداخلي بين أمراء هذه السلطنة إلا في المائة عام الأخيرة من عمرها وخاصة منذ عهد السلطان «حسين» (٥٧٥هـ = ١١٧٩م) ثم تولى بعده السلطان «عبدالله» سنة (٥٩٠هـ = ١١٩٤م) ، وكان مغتصباً للعرش ، استطاع أن يزيحه ابن السلطان «حسين» في (٦٣٢هـ = ١٢٣٢م) واستمر في الحكم ١٤ عاماً ، ثم أعقبه عدد من المغتصبين ، ثم عاد العرش إلى صاحبه الشرعى وهو السلطان «دلارة بن الزرة» سنة (٦٦٨هـ = ١٢٦٩م) الذى صاهر «عمر ولشمع» سلطان «أوفات» الإسلامية كى يشد أزره بهذه المصاهرة ، لكن الطامعين في العرش ازدادوا شراسة حتى انتهى الأمر بمقتل السلطان «دلارة» في سنة (٦٨٢هـ = ١٢٨٣م) وقد أدت هذه الظروف السيئة إلى تدخل سلطان «أوفات» (عمر ولشمع) فدخل «شوا» وانتقم من قتلة صهره السلطان «دلارة» واستطاع أن يعيد الأمن والوحدة إلى «شوا» من جديد ، وبهذا حافظ (عمر ولشمع) على سلطنة «شوا» من أن تقع في يد الأحباش وذلك بعد أن ضمها لدولته .

٢ - سلطنة أوفات الإسلامية

[حوالى ٦٤٨ - ٨٠٥هـ = ١٢٥٠ - ١٤٠٢م]

كانت الحركة الإسلامية قد ازدادت قوة في بلاد الزيلع منذ القرن العاشر الميلادي . وبلاد الزيلع هي البلاد التي تحيط بهضبة الحبشة من الشرق والجنوب الشرقى وتتمثل الآن فيما يعرف بإريتريا وجيبوتى والصومال الكبير بأقسامه الثلاثة :

والشمالى والجنوبى والغربى ، المعروف باسم إقليم «أوجادين» ، يضاف إلى ذلك كل المناطق الإسلامية التي ضمتها الحبشة بالغلبة والقوة قرب نهاية القرن التاسع عشر الميلادي .

في هذه البقعة الواسعة التي تنحصر بين ساحل البحر الأحمر وخليج عدن وبين هضبة الحبشة قامت مراكز تجارية عديدة على الساحل وانتشرت أيضاً في الداخل ، وتحولت في النهاية إلى إمارات وممالك إسلامية نامية تحدث عنها المؤرخون القدامى ، وقالوا إنها كانت سبغ ممالك هي : «أوفات» و«هدية» و«فطجار» و«دارة» و«بالى» و«أرابينى» و«شرخا» ، وامتدت هذه الممالك إلى «هرر» وبلاد «أروسى» جنوباً حتى منطقة البحيرات ، مطوقة الحبشة من الجنوب والشرق .

غير أن هذه الممالك والسلطنات التي قامت في شرق الحبشة وجنوبها تختلف عما رأيناه في أقطار إفريقية أخرى في هذه المرحلة من التطور ؛ إذ لم تكن هذه السلطنات إفريقية خالصة ، أسستها أسر من أهل البلاد الأصليين الذين أسلموا ، كما حدث في «مالى» و«صنغى» و«كانم وبنو» ، إنما أسستها أسر عربية الأصل ، فسلطين «أوفات» وسلطين «شوا» وغيرها يمثلون أرستقراطية عربية مهاجرة ، استقرت في هذه الجهات ونمت ثروتها وازداد نفوذها واستولت على حكم البلاد وكانت الرعية مسلمة ومن أهل البلاد الأصليين . وكانت العلاقات بين هذه الإمارات متوترة تسودها المنافسات القبلية ، ولم يكن بينها من رابط سوى الصلة الروحية فقط ، وكانت من الضعف بحيث إن أمراءها لا يتولون العرش - فى كثير من الأحيان - إلا بموافقة ملك الحبشة المسيحى ، وليس معنى ذلك أن مسلمى تلك الإمارات قنعوا بالخنوع والخضوع للأحباش ، بل إنهم كانوا في أحيان كثيرة منائين للملك الأحباش وغازين له فى عقر داره كما سئرى .

وكان من أسباب ضعف هذه الإمارات أو السلطنات الإسلامية أنها ما كاد يكتمل نموها وتزداد قوتها حتى واجهت حرباً صليبية ضروساً استنزفت مواردها وشغلته عن التفرغ للدعوة الإسلامية ، ولذلك

فإن الإنتاج الثقافى لتلك الإمارات كان محدوداً جداً ، إذ إن الصراع مع الأحباش أخذ كل وقتها ولم يترك لها فرصة للإبداع والابتكار ، ولم تنج سلطنة واحدة من الاشتباك مع هؤلاء الأحباش .

وقد قامت سلطنة «أوفات» حوالى (٦٤٨ - ٨٠٥هـ = ١٢٥٠ - ١٤٠٢م) بعبء المقاومة والدفاع ضد هذا الخطر الصليبي الحبشى الذى كان يهدف إلى القضاء على الإسلام فى منطقة القرن الإفريقى كلها ، ولذلك كان من الواجب أن نخص هذه السلطنة بحديث .

كانت سلطنة «أوفات» أقوى سلطنة إسلامية قامت فى بلاد «الزيلع» ، أسسها قوم من قريش من «بنى عبدالدار» أو من «بنى هاشم» من ولد «عقيل بن أبى طالب» .



قناع إفريقى من غانا

ومدينة «أوفات» هي نفسها مدينة «جبرة» أو «جبرت» وكانت من أكبر مدن بلاد «الزليغ» ، وكانت تتحكم في الطريق التجاري الذي يربط المناطق الداخلية بميناء «زليغ» على البحر الأحمر . ولم يتضح تاريخ «أوفات» إلا حوالى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى حينما ظهر أحد أمراء المسلمين وكان يسمى «عمر» ويعرف بلقب «ولشمع» ، وأقام هذه السلطنة التى نمت وازدادت قوتها حتى استطاع صاحبها «عمر ولشمع» أن يتتهدز فرصة ضعف سلطنة «شوا» المخزومية وأن يهاجمها عام (٦٨٤هـ = ١٢٨٥م) ويقضى عليها ويستولى على أملاكها كما رأينا عند الحديث عن هذه السلطنة .

وقد أدى هذا إلى اتساع سلطان «بنى ولشمع» السياسى ، واستطاعت «أوفات» فى عهدهم أن تبسط نفوذها على بقية هذه الإمارات الصغرى التى أشرنا إليها وأن يصل هذا النفوذ حتى ساحل البحر الأحمر وحتى منطقة «زليغ» وسهل «أوسا» .

وكانت مساحة الأراضى التى سيطر عليها المسلمون بزعامة «أوفات» تفوق مساحة أرض مملكة الحبشة المسيحية نفسها ، بل كانت تحيط بالحبشة من الجنوب والشرق، فضلا عن إحاطة الإسلام بها من ناحية السودان من الشمال والغرب، مما أدى إلى عزل مملكة الحبشة عزلا

تاما عن العالم الخارجى ، ولاسيما بعد استيلاء المسلمين على ميناء «عدل» قرب «مصوع» ، ولذلك لاندحش من أنه عندما تولت الأسرة «السليمانية» عرش الحبشة عام (٦٦٩هـ = ١٢٧٠م)، رسمت لنفسها خطة لتوسيع سلطان «الحبشة» على حساب جيرانها من المسلمين الذين كانوا يسيطرون على الموانئ ومن ثم على التجارة الخارجية .

وبذلك بدأت أولى مراحل الجهاد والصراع بين «أوفات» وتوابعها من الإمارات الإسلامية وبين ملوك الحبشة من ذلك الحين، وكانت البداية المبكرة على أيام الملك «ياجياييون» (٦٨٤ - ٦٩٣هـ = ١٢٨٥ - ١٢٩٤م) الذى شن حملة صليبية عنيفة ضد إمارة «عدل» التابعة لأوفات ، وكان قد استشعر خطر الاتحاد الإسلامى الذى كانت تدعو إليه سلطنة «أوفات»، فضلا عن أن تلك السلطنة أعلنت زعامتها على الممالك الإسلامية المجاورة لها فى بلاد «الزليغ» ، وكان هذا أمراً يتعارض مع مشاريع ملوك الحبشة الجدد ، فقاموا بحملتهم تلك التى أشرنا إليها ، وانتهت بانتصارهم .

وترجع هذه الهزيمة إلى أن حركة المقاومة التى ترعمتها «أوفات» لم تكن منبعثة عن وحدة وتعاون فعال بينها وبين الممالك الإسلامية ، ولذلك هزمهم

الأحباش من أول لقاء ، بل يقال إن إمارتين إسلاميتين عاونتا ملك الحبشة فى هجومه الذى انتهى بنهب «عدل» وعقد هدنة بين الطرفين ، وكان من الممكن أن تكون هذه الحرب هى القاضية لولا تدخل سلطان «مصر» المملوكى الذى هدد بقطع العلاقات وعدم الموافقة على تعيين «المطران» الذى طلبه الأحباش، وكان يعين من قبل بطرك مصر ، وأثمر هذا التدخل، فقبل الأحباش الهدنة مع «أوفات»

استطاع المسلمون تقوية مراكزهم ودعم سلطانهم على طول منطقة الساحل ، وكانوا يرتقبون فرصة ضعف أو تخاذل فى صفوف أعدائهم ، وعندما علموا بوفاة ملك «الحبشة» عام (٦٩٨هـ = ١٢٩٩م) ، قام شيخ مجاهد يدعى «محمد أبو عبدالله» بحشد طائفة كبرى من قبائل «الجلالا» و«الصومال» وأعدهم للجهاد ، وقام بغزو الحبشة ، ولم تعتمد الحبشة إلى المقاومة بسبب بعض المتاعب الداخلية ، واضطر ملكها إلى التنازل للمسلمين عن بضع ولايات على الحدود نظير الهدنة ، ولم يكن سلاطين «أوفات» ليقنعوا بالهدنة ، وخاصة أن قوتهم قد ازدادت ، فلم يستطع الملك الحبشى «ودم أرعد» (٦٩٨ - ٧١٤هـ = ١٢٩٩ - ١٣١٤م) أن يرد هجماتهم .

ورأت «أوفات» أن تظهر قوتها للحبشة بل وتتوسع فى أملاكها وتقضى على عدوانها ، فتقدم السلطان «حق الدين» وتوغل فى أملاك الحبشة وغزا بعض الولايات المسيحية .

نما جعل ملك الحبشة يقوم بغزو «أوفات» فى عام (٧٢٨هـ = ١٣٢٨م) وهاجمها من جميع الجهات وأسر «حق الدين» ووضع يده على مملكته وعلى «مملكة فطجار» الإسلامية وجعلها ولاية واحدة وعين عليها «صبر الدين» وهو شقيق «حق الدين» بشرط الاعتراف بسيادة الحبشة .

غير أن «صبر الدين» لم يطق صبراً على هذه التبعية وكوّن حلفاً إسلامياً من إمارتى «هدية» و«دوارو» ، ثم تقدم لغزو الحبشة واستولى على كثير من الغنائم ، وهدد ملك الحبشة الذى خرج على رأس جيشه وهاجم الحلفاء منفردين بادئاً بإمارة «هدية» ، فحطمها قتلاً ونهباً وأسراً ، وأرغمها على الخروج من الحلف ، وحمل ملكها أسيراً إلى عاصمته ، ثم تقدم إلى «أوفات» ودخلها ودمرها ونهب معسكر المسلمين فيها ، ثم تقدم إلى «فطجار» واستولى عليها وعلى مملكة «دوارو» .

وعلى ذلك يمكن القول بأنه فى هذه الفترة انتهى استقلال الممالك الإسلامية فى «أوفات» و«هدية»

و«فطجار» و«دوارو» . وعين عليها ملك الحبشة «جلال الدين» أخا «صبر الدين» حاكماً ، فقبل على أن يكون تابعاً للحبشة ، وهكذا اتسعت مملكة الحبشة وضعف أمر المسلمين .

وفى غمرة هذا الصراع الدموى اتفقت كلمة المسلمين بين عامى (١٣٣٢م و ١٣٣٨م) على الاستنجاد بدولة المماليك فى «مصر» ، وذلك بإرسال سفارة إلى سلطان «مصر» «الناصر محمد بن قلاوون» برئاسة «عبدالله الزيلعى» ليتدخل السلطان فى الأمر لحماية المسلمين فى بلاد «الزليغ» . فطلب «الناصر محمد» من بطرك الإسكندرية أن يكتب رسالة إلى ملك الحبشة فى هذا الصدد . غير أن ملك الحبشة لم يكف عن مهاجمة المسلمين الذين لم يتوانوا عن انتهاز الفرص للثأر منه . وتحالفت إمارتا «مورا» و«عدل» مع بعض القبائل البدوية وأخذوا يشنون حرباً أشبه بحرب العصابات ، وأخذ ملك الحبشة فى مطاردتهم وتقدم فى أراضى «مورا» الإسلامية ، حتى وصل إلى مدينة «عدل» وقبض على سلطانها وذبحه ، فتقدم أولاد السلطان الثلاثة إلى ملك الحبشة مظهري الخضوع

وفى تلك الأثناء انتاب إمارة «أوفات» بعض الفتن الداخلية بسبب النزاع على العرش بين أفراد

الأسرة الحاكمة ، وانتهى النزاع بانفراد «حق الدين الثانى» وإعلان استقلاله عن الحبشة ، واستطاع أن يهزمها ويردها عن إمارته فترة طويلة حتى هُزم ومات عام (٧٨٨هـ = ١٣٨٦م) ، والتف المسلمون للمرة الأخيرة حول خليفته وأخيه «سعد الدين» ، واستأنفوا حركة الجهاد ودحروا الأحباش ، وتوغلوا فى أرض «أمهرة» (مملكة النجاشى) لكن «سعد الدين» هُزم فى معارك تالية، واضطر إلى الفرار إلى جزيرة «زليغ» حيث حوَّصر وقتل عام (٨٠٥هـ = ١٤٠٢م) نتيجة لخيانة رجل دلهم على مكمنه .

ويعتبر احتلال الأحباش لزليغ بمثابة إسدال الستار على سلطنة أوفات التى احتلها الأحباش نهائياً، ولم يعد يسمع بها أحد ، وانتهى دورها فى الجهاد ، وتفرق أولاد «سعد الدين» العشرة مع أكبرهم «صبر الدين الثانى» ، وهاجروا إلى شبه الجزيرة العربية حيث نزولوا فى جوار ملك اليمن «الناصر أحمد بن الأشرف» الذى أجارهم وجهمهم لاستئناف الجهاد ضد الحبشة ، فعادوا إلى إفريقيا حيث انضم إليهم من بقى من جنود والدهم ، فقوى أمرهم واستأنفوا النضال واتخذوا لقباً جديداً هو لقب «سلاطين عدل» .

٣ - سلطنة عدل الإسلامية

[٨١٧ - ٩٨٥ هـ = ١٤١٤ - ١٥٧٧ م]

كانت «عدل» إقليمًا من الأقاليم التي خضعت لسلطين «أوفات». وليس بعيد أن تكون قد تأسست فيها إمارة محلية تدين بالولاء لبنى ولشجع. ويبدو أن موقعها المتطرف قد ساعد على نجاتها من التوسع الحبشى الذى أطاح بالإمارات السابقة.

وكان طبيعيا أن يأوى «بنو سعد الدين» إلى إقليم قريب من البحر يتيح لهم الاتصال ببلاد اليمن بعيداً عن مناطق النفوذ الحبشى. وكانت تلك السلطنة تضم البلاد الواقعة بين ميناء «زيلع» و«هرر» وتشمل ما يعرف بالصومال الشمالى والغربى وإقليم «أوجادين»، وسميت هذه البلاد «بر سعد الدين» تخليداً لسعد الدين الذى مات بزيلع ودفن بها.

استأنف سلاطين «عدل» الجهاد مرة أخرى فى عهد «صبر الدين الثانى» الذى اتخذ مدينة «دكر» عاصمة له واستطاع الاستيلاء على عدة بلاد حبشية فيما يعرف بحرب العصابات، وبعد وفاته عام (٨٢٥ هـ = ١٤٢٢ م) خلفه أخوه «منصور» المتوفى سنة (٨٢٨ هـ = ١٤٢٥ م).

ولكن راية الجهاد ضد عدوان الأحباش لم تسقط بهذه الهزيمة، فقد قام أخ للسلطان الأسير وهو السلطان «جمال الدين» برفع راية الجهاد من جديد.

وانتصر على ملك الحبشة فى مواقع كثيرة، ولكن أبناء عمه حقدوا عليه ربما رغبة فى النفوذ والسلطان الذى حرّموا منه فاغتالوه فى عام (٨٣٦ هـ = ١٤٣٢ م)، فتولى الحكم بعده أخوه السلطان «شهاب الدين أحمد بدلاى» الذى عاقب القتلة وحارب الأحباش

وتميز هذا الدور بظهور طائفة من الأمراء الأئمة أشربت قلوبهم حب الجهاد وصارت لهم السلطة الفعلية فى البلاد. وبذلك أصبح فى المجتمع العدلى حزبان: هذا الحزب الشعبى الذى يتزعمه الأمراء الأئمة، وذلك الحزب الذى يريد أن يسالم الأحباش ويتكون من الطبقة الأرستقراطية والتجار، وعلى رأسه سلاطين عدل التقليديون.

وكان أول هؤلاء الأئمة ظهوراً هو الداعى «عثمان» حاكم زيلع الذى أعلن الجهاد بعد وفاة السلطان «محمد بن بدلاى» مباشرة عام (٨٧٦ هـ = ١٤٧١ م)، ثم ظهر فى «هرر» الإمام «محمود» الذى تحدى

السلطان «محمد بن أزهر الدين»، واشتبك مع الأحباش، غير أن البرتغاليين ظهروا على مسرح الأحداث وفاجئوا «زيلع» وأغاروا عليها وانتهى الأمر بفشل حركة «محمود»، وباغتيال السلطان «محمد» سنة (٩٢٤ هـ = ١٥١٨ م).

وفى بداية القرن (١٦ م) ظهرت تطورات كان لها تأثيرها فى مسرح الأحداث بين المسلمين والأحباش، تمثلت فى ظهور الأتراك العثمانيين وقيام حركة الكشوف الجغرافية بزعامة الملاحين البرتغاليين، كذلك أدخلت الأسلحة النارية إلى منطقة الأحداث فى بلاد «الزيلع» و«الحبشة»، وأهم من هذا كله



إسلام قبائل البدو من الأعفار والصومالي، ودخولها ميدان الجهاد، ووقوفها وراء الإمام الذى رشحته الأحداث لتزعم حركة الجهاد الإسلامى فى ذلك الدور، وهو الإمام «أحمد بن إبراهيم الغازى» الملقب بالقرين أى الأشول.

اتبع الإمام «أحمد القرين» بعد أن سيطر على مقاليد الأمور فى سلطنة «عدل» وبعد أن اتخذ «هرر» مقراً له سياسة موفقة جمعت الناس حوله، فقد طبق الشريعة الإسلامية فى حكمه وخاصة فى توزيع أموال الزكاة والغنائم على مستحقيها وفى مصارفها الشرعية، وبذلك كسب حب الجند وحب الفقهاء والعلماء، كما كسب أيضاً محبة الشعب، فقد كان يلطف بالمساكين ويرحم

الصغير ، ويوقر الكبير ، ويعطف على الأرملة واليتيم ، وينصف المظلوم من الظالم ، ولا تأخذه في الله لومة لائم ، كما قضى على قُطَّاع الطرق فأمنت البلاد وانصلح حال الناس وانقادوا له وأحبوه .

بهذه السياسة الداخلية السليمة استطاع الإمام «أحمد القرين» أن يوحد كلمة المسلمين ويتولى زعامتهم وعزم على رد عادية الأحباش ، وذلك بفتح بلاد الحبشة ذاتها ، وتمكن من التوغل فيها حتى وصل إلى أقاليمها الشمالية ، ودارت بينه وبين الأحباش عدة معارك ، كان أولها في عام (٩٣٣هـ = ١٥٢٧م) حيث هزم الأحباش لأول مرة منذ بداية الجهاد . وفي عام (٩٣٤هـ = ١٥٢٨م) أحرز الإمام «أحمد» نصراً حاسماً على الأحباش في موقعة «شنبر كورى» ، ثم بدأ في غزو بلاد الحبشة نهائياً .

ففي سنة (٩٣٨هـ = ١٥٣١م) دخل «دوارو» و«شوا» و«أمهرة» و«لاستا» . وفي سنة (٩٤٠هـ = ١٥٣٥م) سيطر المسلمون على جنوب الحبشة ووسطها ، وغزوا «تجراى» للمرة الأولى وأصبح مصير الأحباش في كفة الميزان .

وفي هذا الوقت كان الزحف البرتغالى قد وصل إلى البحر الأحمر فاستنجد بهم الأحباش عام (٩٤٢هـ = ١٥٣٥م) فأرسل إليهم ملك البرتغال نجدة عسكرية وصلت

البلاد عام (٩٤٨هـ = ١٥٤١م) ، وتقابل المجاهدون بقيادة «أحمد القرين» مع الأحباش والبرتغاليين في عدة مواقع عام (٩٤٩هـ = ١٥٤٢م) ، لكنه هُزم وتكررت هزيمته في العام التالى حيث استشهد وتفرقت جموعه ، ونجت الحبشة من السقوط ، ولم يعد المسلمون مصدر خطر جدى يهدد

وكانت انتفاضة «هرر» الأخيرة عام (٩٨٥هـ = ١٥٧٧م) حينما تحالفت مع أحد ثوار الأحباش للنيل من ملك الحبشة ، وحدثت موقعة انتهت بمقتل «محمد الرابع» آخر أمراء «هرر» عند نهر «ويى» ، وانتهت هرر كقوة سياسية ذات شأن ، في الوقت الذى استطاع فيه الأحباش أن

يقضوا على خطر الأتراك العثمانيين أيضاً بهزيمتهم وعقد هدنة معهم عام (٩٩٧هـ - ١٥٨٩م) واكتفى العثمانيون بالسيطرة على «مصوع» و«سواكن» ، وبذلك انتهى الصراع في الحبشة لصالح الأحباش . وإذا كانت هذه الحركة لم تحقق أهدافها بالقضاء على مملكة الحبشة نهائياً ، إلا أنها أثبتت عمق الشعور

الإسلامى فى نفوس أهل شرق إفريقيا وعمق تمسكهم بالإسلام ، فقد دأبوا على الجهاد وأصروا عليه طيلة أربعة قرون ، وظهر أثر العلماء والفقهاء وأصبحت لهم الزعامة فى المجتمع فى ذلك الوقت .

وعلى الرغم من هذه الهزيمة التى منى بها المسلمون فى منطقة القرن الإفريقى وانصراف اهتمام العثمانيين إلى أوروبا والعالم العربى فإن المسلمين الزبالة بقيت لهم بعض سلطنتهم وبلادهم . ذلك أن الصراع الذى اندلع بينهم وبين الأحباش أنهك الطرفين معاً مما هيا الفرصة لدخول قبائل الجلا الوثنية القادمة من الجنوب ، فاحتلت «هرر» واستقرت فى النصف الجنوبى من دولة الحبشة ، ثم أسلمت هذه القبائل أخيراً ، ولكن أوروبا الغربية أعانت الأحباش على المسلمين فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وخاصة فى عهد «منليك الثانى» الذى استولى على سلطنة «هرر» فى عام (١٣٠٢هـ =

١٨٨٥م) وعلى غيرها من البلدان الإسلامية ، ثم استولى الأحباش على سلطنة «أوسا» ، ثم على «إريتريا» وإقليم الأوجادين الصومالى» فى القرن العشرين . وظل الأمر على هذا النحو حتى نالت هذه البلاد استقلالها وتحررت من نير الأحباش وإن كان بعضها لا يزال تحت سيطرتهم حتى الآن .



الإسلام والسلطنات الإسلامية في منطقة الساحل الشرقي لإفريقيا

كما واجه المسلمون والسلطنات الإسلامية السابقة الخطر الصليبي الحبشي في منطقة القرن الإفريقي ؛ واجه المسلمون والسلطنات الإسلامية في «مقديشيو» وعلى طول الساحل الشرقي من القارة خطراً صليبياً آخر لا يقل خطراً وهو الخطر البرتغالي ، ومن ثم تميزت الحركات الإسلامية ، سواء هنا أو هناك بأسلوب الجهاد الذي اتبعته حتى تحافظ على كياناتها



الساحل الشرقي لإفريقيا في العصور الوسطى



ولاشك أن هذا الأسلوب كان من العوامل التي أذكت الحماسة الدينية في نفوس المسلمين، وساعدت على نشر الإسلام في تلك المناطق، وخير دليل على ذلك هو إسلام قبائل «الأعفار» و«الصومال» و«الجلالا» ، وغيرها من القبائل الزنجية في بداية العصر الحديث ، ثم قيام هذه القبائل بتولى عبء الدفاع عن الإسلام سواء ضد الخطر الحبشي في الشمال أو الخطر البرتغالي القادم من الجنوب .

وسوف نتحدث عن السلطنات الإسلامية التي قامت على طول الساحل الشرقي لإفريقيا ، بدءاً من «مقديشيو» وحتى نهر «الزيمبيزي» في «موزمبيق» ، وتتمثل هذه السلطنات في ثلاث هي : «سلطنة مقديشيو» و«سلطنة بات» ، و«سلطنة كلوة» .

سلطنة مقديشيو الإسلامية الصومال

كانت بلاد «الصومال» تعرف في العصور الوسطى باسم «سلطنة مقديشيو» .

ويتنمى الصوماليون إلى العنصر الكوشي الحامي ، ومنهم قبائل «الجلالا» و«الدناكل» ، وهؤلاء اختلطوا بالعناصر السامية التي هاجرت من جنوب بلاد العرب قبل الميلاد ، وبالزنج البانتو ، وتكون منهم «شعب الصومال» .

وبعد ظهور الإسلام تدفقت القبائل العربية على تلك المنطقة ، إما بهدف التجارة أو نشر الإسلام أو الإقامة فراراً من الانقسات السياسية ، وأقام هؤلاء المهاجرون العرب مراكز تجارية على طول الساحل الشرقي الإفريقي ؛ في «مقديشيو» و«براوة» و«سوفالة» ، و«بات» و«مبسنة» و«مالندي» و«كلوة» وغيرها ، وعلى أيديهم نشأت معظم هذه المدن .

وتشير بعض المصادر إلى مواضع مدن أخرى مثل «قرفاوة» ، و«النجا» ، و«بذونة» ، و«ماندا» في جزيرة «ماندا» . و«أعوزي» ، و«شاكاة» قرب دلتا نهر «تانا» ، وقد بنى «بنو الحارث» هذه المدن في سنوات متفاوتة وأسسوا فيها سلطنة استمروا في حكمها معظم فترات العصور الوسطى ، فكان حكام «سلطنة مقديشيو» عند قدوم البرتغاليين من سلالة الإخوة السبعة ، بل إن فيها حتى اليوم سبع عشائر تعود بأصولها إليهم .

وفي عهد هذه الأسرة الحاكمة صارت «مقديشيو» سلطنة قوية ذات شوكة ونفوذ على عربان الساحل وعلى المدن التي تحيط بها ، وكان

تجارها أول من وصلوا إلى بلاد «سفال» ، واستخرجوا منها الذهب ، مما درّ عليهم أموالاً كثيرة ، استفادوا منها في تطوير «مقديشيو» فحلت المنازل المشيدة بالأحجار على الطراز العربي محل المباني الخشبية ومحل المساكن المتخذة من القش المغطى بجلود الحيوانات .

وكانت «مقديشيو» في عهدهم بمثابة العاصمة لجميع البلاد المجاورة ومركزاً للمدن العربية الأخرى التي امتدت على طول الشاطئ ، فكانت جموع الناس ترد على «مقديشيو» من هذه المدن ، فيجتمعون في مسجدها الجامع حيث يؤدون صلاة الجمعة ، مما يدل على أهمية مركز «مقديشيو» الديني والثقافي عند سكان الساحل جميعاً ، حتى اعتبرت العاصمة الثقافية لساحل الزنج كله ، وزعيمة عرب هذا الساحل ؛ نتيجة لما وصلت إليه من قوة ونفوذ ، ولما قامت به من دور مهم في نشر العروبة والإسلام .



من عاداتهم أنه متى وصل مركب أو سفينة محملة بالتجار والبضائع إلى ميناء «مقديشيو» يركب شباب هذه المدينة في قوارب صغيرة ويحمل كل منهم طبقاً مغطى فيه طعام ، فيقدمه لتاجر من التجار القادمين على هذه السفن ويقول «هذا نزيلي» فينزل معه هذا التاجر إلى داره ، ويساعده هذا الشاب في عمليات البيع والشراء ، مما أدى إلى رواج تجارتهم مع الأقطار الخارجية .

وقد استمرت سيادة «مقديشيو» على ساحل «بنادر» حتى القرن السادس عشر الميلادي حينما فقدت أهميتها وانحطت منزلتها كمركز تجارى ، خاصة بعد انتشار التجارة بين عدة مدن ساحلية أخرى منافسة لمقديشيو ، وتعرضها والمنطقة للخطر البرتغالي ، فقد ضرب «فاسكودي جاما» «مقديشيو» بالمدافع في أثناء عودته من «الهند» عام (١٤٩٨م) ، ثم استولى أحد قواد البرتغال على مدينة «براوة»

عام (١٥٠٧م) ، وحاول الاثنان الاستيلاء على «مقديشيو» لكنهما فشلا ، وغزا «لوبي سواريز» «زيلع» عام (١٥١٥م) وأضرم فيها النار ، كما حاصر البرتغاليون «بربرة» عام (١٥١٦م) . وهكذا نرى أن البرتغاليين قادوا حرباً صليبية ضد المسلمين في شرق إفريقيا و«الصومال» . ومن المدهش حقاً أنه كان من نتائج تلك الحملة الوحشية انتشار الإسلام ، ذلك لأن السكان المسلمين الذين تركوا الساحل أمام نيران المعتدين البرتغاليين لجأوا إلى الداخل ، حيث اختلطوا بالقبائل الصومالية ونشروا الإسلام بينها ، فتتج عن ذلك «شعب الصومال» المسلم ، وبسبب كثرة الهجرات العربية من بلاد «اليمن» و«الحجاز» وامتزاجها بأهل تلك البلاد ؛ انتشرت اللغة العربية والدم العربى بدرجة كبيرة ، وأصبحت العربية هي لغة التخاطب بجانب اللغة المحلية ، وكانت قبائل «الصومال» بعد اعتناقها الإسلام هي السند والحصن الذى لجأ إليه «أحمد القرين» فى صراعه ضد ملوك «الحبشة» ، مما يدل على تمسك شعب الصومال بالإسلام ودفاعهم عنه دفاعاً قويا ، ولا غرو فالصومال الآن كما هو معروف إحدى دول الجامعة العربية .



مدة إقامته . وقد أمدنا بمعلومات كثيرة عن طعام أهلها وفاكهتها وملابس شعبها وتقاليدها سلطانها فى مواكبه ومجالسه ، وعن مجالس الفقهاء والعلماء وذوى رأى ، وعن كيفية نظرهم فى شكوى الناس ، وتطبيقهم للشريعة الإسلامية .

بعد ذلك يصف «ابن بطوطة» الازدهار الاقتصادى الذى كانت تنعم به سلطنة «مقديشيو» الإسلامية فيقول : «إن هذه المدينة مدينة واسعة كبيرة يمتلك أهلها عدداً وافراً من الجمال والماعز ، ينحرون منها مئات كل يوم ، وإنهم تجار أغنياء أقوياء ، بعضهم يقوم بصناعة ثياب جميلة لا نظير لها تُصدّر إلى مصر وغيرها من البلاد» . وكى يشجعوا التجار على القدوم إلى بلادهم كان

نشر الإسلام بين هذه القبيلة وغيرها من القبائل الصومالية ، التى اتصلت بسلطنة «مقديشيو» الإسلامية ، التى أكثرت من إنشاء المساجد والجوامع التى لا يزال بعضها باقياً حتى الآن ، منها مسجد عليه كتابة تبين تاريخ تأسيسه وهو سنة (٦٣٧هـ = ١٢٣٩م) ، أى قبل مرور «ابن بطوطة» بها بنحو قرن من الزمان ، ولعله «مسجد عبدالعزيز» الذى بُنى فى «مقديشيو» منذ سبعمئة عام تقريباً ، ولازال موجوداً حتى الآن .

وقد وصل إلينا كثير من المعلومات عن بلاد الصومال بفضل ما كتبه عنها الرحالة والجغرافيون العرب ، مثل «المسعودى» و«الإدريسى» و«ابن بطوطة» الذى أمدنا بوصف دقيق لعدد من المدن الإفريقية وأحوال سكانها المسلمين ، ولاسيما «مقديشيو» ، التى زارها عام (١٣٣٢م) و«زيلع» التى قال عنها : «إنه يسكنها طائفة من السودان شافعية المذهب وهى مدينة كبيرة ، لها سوق عظيمة لها رائحة غير مستحبة بسبب كثرة السمك ودماء الإبل التى ينحرونها فى الأزقة والطرق» .

ثم أفلح «ابن بطوطة» إلى «مقديشيو» واستقر بها أسبوعاً ، وأتيح له أن يتصل بقاضيهاعلمائها و«أبى بكر ابن الشيخ عمر» الذى استضافه

وعندما وصل الشيرازيون المهاجرون بقيادة «على بن حسن بن على» إلى «مقديشيو» بعد حوالى سبعين عاماً من بنائها ، لم يستطيعوا دخولها لحصانتها ومناعتها فتركوها واتجهوا جنوباً إلى «كلوة» ؛ حيث أقاموا هناك سلطنة إسلامية ، فكانت هى و«مقديشيو» أهم مدينتين على الساحل من القرن العاشر إلى الخامس عشر الميلادى ، ولم تستطع إحدهما أن تسيطر على الساحل سيطرة كاملة .

وعند قدوم «ابن بطوطة» إلى «مقديشيو» كانت تسيطر عليها قبيلة الأجران الصومالية ، وكان سلطانها يسمى «أبا بكر بن الشيخ عمر» ، ويبدو أن سيطرة هذه الأسرة كان أمراً عارضاً ؛ بدليل أن البرتغاليين عندما قَدِموا إليها كان حكامها من أسرة «المظفر» من «بنى الحارث» الذين أسسوها من قبل .

ونظراً لطول مدة حكم هذه الأسرة فقد كانت لها جهود كبيرة فى تعريب كثير من القبائل الصومالية خاصة الساحلية ، التى دخلت فى الإسلام على أيديهم . ذلك أن هذه القبائل وخاصة قبيلة «الأجران» كانت تربطها بأسرة «المظفر» الحارثية صلات تجارية كبيرة .

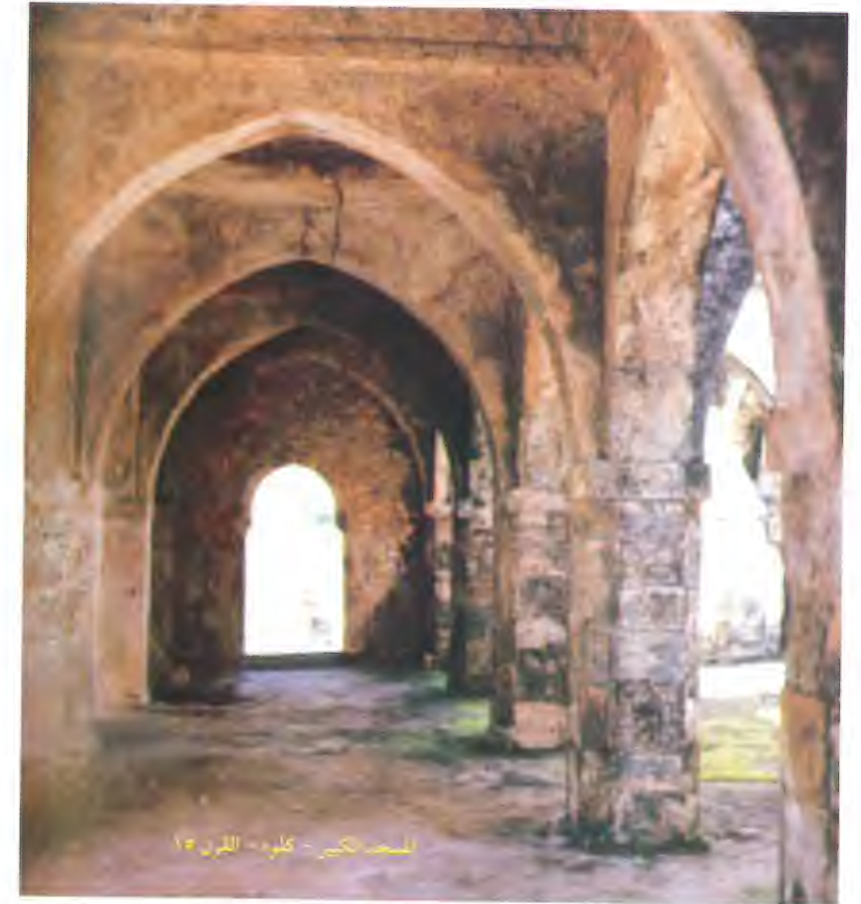
ولاشك أن هذه العلاقات التجارية لابد أن تؤتى ثمارها فى

٢ - سلطنة كلوة الإسلامية

[٣٦٥ - ٩١١ هـ = ٩٧٥ - ١٥٠٥ م]

قامت هذه السلطنة نتيجة هجرة قدمت من «شيراز» بفارس ، كان على رأسها «علي بن حسن بن علي» وأبناءؤه الستة ، حيث كانوا على متن سفنهم بما فيها من بضائع بقصد التجارة ، ولما وصلوا إلى «جزيرة كلوة» التي تقع أمام الساحل الشرقي لإفريقيا ، وهي ضمن دولة «تنزانيا» الآن ، استقروا فيها منذ عام (٣٦٥ هـ = ٩٧٥ م) ، ووفد عليهم كثير من العرب ،

من تلك التجارة التي كانت تحصل عليها من «سوفالة» ، وخاصة في عهد السلطان «داود بن سليمان» سلطان «كلوة» (١١٣٠ - ١١٧٠ م) ، وبذلك صارت الزعامة السياسية والاقتصادية لكلوة ، ويعتبر القرنان الثاني عشر والثالث عشر الميلاديان هما العصر الذهبي لتلك السلطنة الزنجية الإسلامية ، فقد أصبحت «كلوة» عروس الشاطئ الإفريقي ، وقام سلطانها بسك النقود ، وقد عثر في «كلوة» و«مافيا» و«زنجبار» على نحو (١٠٠٠٠) قطعة نحاسية من هذه النقود .



المسجد الكبير - كلوة - القرن ١٥

وكان هؤلاء الوافدون يفضلون المعيشة في الجزر لسهولة الدفاع عنها والاعتصام بها إذا ما حاول الأهالي الساكنون في البر الإفريقي الاعتداء عليهم ، وعند وفاة «علي بن حسن ابن علي الشيرازي» كان نفوذه يمتد إلى مدينة «سوفالة» في الجنوب ، وإلى «مبسرة» في الشمال ، وبعد وفاته اعتدى الأهالي على ابنه ، واضطروه إلى الفرار إلى «زنجبار» عام (١٠٢٠ م) وبعد قليل جمع السلطان المطرود جنوده وعاد بهم إلى «كلوة» ودخلها مرة ثانية ، وازدهرت المدينة خلال القرن التالي بسبب تجارة العاج والذهب الذي كان يُصدّر من «سوفالة» التي تقع جنوب نهر «الزمبيري» ، أي جنوب «كلوة» وحرمت «مقديشيو»

الجير والإسمنت واستخدامها في البناء ، وفن النقش على الخشب ، ونسج القطن ، وشيدوا عدة مساجد ومبانٍ جميلة الطراز ، مازال بعض مخلفاتها باقية حتى الآن ، ولكن الأثر العربي تغلب بعد ذلك بسبب كثرة الهجرات العربية واستقرارها .

وقد وصل إلينا كثير من المعلومات عن هذه السلطنة من الوثائق التاريخية المهمة وبفضل ما كتبه عنها الرحالة والجغرافيون العرب كالمسعودي ، و«الإدريسي» ، و«ابن بطوطة» الذي زار مدينة «كلوة» و«مبسرة» . وقال عن الأخيرة : «إنها جزيرة كبيرة بينها وبين أرض الساحل مسيرة يومين في البحر ، وأشجارها: الموز والليمون والأترج ، وأكثر طعام أهلها السمك والموز ، والقمح يأتي لهم من الخارج لأنهم لا يزرعون . وهم شافعيون يعنون بأموال دينهم ويشيدون المساجد من الأخشاب

المتينة» . وبعد أن قضى «ابن بطوطة» ليلة في «مبسرة» ركب البحر إلى مدينة «كلوة» ، وقال عنها : «إنها مدينة كبيرة ، بيوتها من الخشب ، وأكثر أهلها زنوج مستحكمو السواد ، وهم شافعيون ، ويحكمها السلطان «أبو المظفر حسن» ، وقد كان في قتال دائم مع السكان المجاورين ، وعرف بتقواه وصلاحه ، كما كان محسنًا كريمًا» .

ولم يكن السلطان «أبو المظفر حسن» الذي زار «ابن بطوطة» «كلوة» في عهده فارسي الأصل ، بل كان من أصل عربي صميم ، فهو من بيت «أبي المواهب الحسن ابن سليمان المطعون بن الحسن بن طالوت المهدي» اليمني الأصل . وقد انتقل الحكم من البيت الفارسي إلى هذا البيت العربي منذ عام (٦٧٦ هـ = ١٢٧٧ م) ، وظل هذا البيت يحكم هذه السلطنة حتى جاء

البرتغاليون وقاموا بغزوها في عام (١٥٠٥ م) . وقد ازدادت الهجرات العربية في عهد هذا البيت العربي الحاكم في «كلوة» ، مما جعل الطابع العربي يتغلب على الطابع الفارسي في مظاهر الحياة المختلفة ، فاللغة الغالبة هي اللغة العربية التي كانت تُكتب بها سجلات «كلوة» بجانب اللغة السواحلية ، كما كان المذهب الديني السائد هو المذهب الشافعي السني وليس المذهب الشيعي ، الذي أتى به البيت الحاكم الأول على يد «علي بن حسن بن علي الشيرازي» ، وما زالت أغلبية المسلمين في هذه المنطقة من السنة الشافعية حتى الآن .

على أية حال فقد انفعل سلاطين هذه السلطنة سواء أكانوا من الفرس أم من العرب بالحياة والتقاليد الإسلامية كل الانفعال ، فأكثرُوا من بناء المساجد والمدارس ، واهتموا بالعلوم الإسلامية ، واستقدموا



من زخارف المنسوجات (تنزانيا)

العلماء ورحبوا بالأشراف والصالحين ، كما شاركوا في الجهاد ضد الوثنيين الذين كانوا يقيمون في الداخل ، وقد أشار إلى ذلك «ابن بطوطة» وقال : «إن سلطانها كان كثير الغزو إلى أرض الزنوج ، يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ويصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله تعالى ، ويجعل نصيب ذوى القربى في خزائنه على حدة ، فإذا جاءه الشرفاء دفعه إليهم ، وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها . . . وكان هذا السلطان له تواضع شديد ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ويعظم أهل الدين والشرف» .

غير أن ازدهار «كلوة» لم يتجاوز منتصف القرن الرابع عشر؛ إذ أخذ نجمها في الأفول بسبب تعرضها لبعض الاضطرابات الداخلية ، وبدأت مدينة «بات» في شمالها

تقوى وتشرى لانتقال تجارة الذهب إليها ، وأخذت في التوسع صوب «كلوة» في عهد أسرة «بنى نهان» العربية التي أسست سلطنة قوية في مدينة «بات» فرضت سلطانها على كثير من بلاد الساحل الشرقي لإفريقيا ، كذلك قام حاكم «سوفالة» بالتخلص من سيادة «كلوة» وأعلن استقلاله عنها ، وانتهى الأمر إلى نزوح بعض العرب من «مالندة» (مالندى) إلى «كلوة» وتولوا مناصب الوزراء والأمراء وأبقوا على السلطان الذى لم يكن له من الحكم إلا الاسم فقط ، وقام الصراع بين أفراد البيت الحاكم على منصب السلطان في القرن الخامس عشر الميلادى ، وتعاقبوا على العرش الواحد بعد الآخر ، وقل المال حتى إن الحكومة لم تجد ما تنفقه على إصلاح المسجد

الكبير بعد أن أصابه الخراب . وقد أعطى كل هذا الفرصة للبرتغاليين للسيطرة على مقاليد الأمور في البلاد ، ففي عهد «فضيل بن سليمان» آخر سلاطين «كلوة» الذى بلغ عددهم (٢٩) سلطاناً احتل البرتغاليون مدينة «كلوة» عام (١٥٠٥م) ، وفى آخريات القرن السابع عشر وقعت «كلوة» تحت سيادة سلاطين عُمان الذين قضوا على النفوذ البرتغالي فى بلادهم ثم فى شرق إفريقيا . ولما فصل هؤلاء السلاطين ممتلكاتهم الأسبوية عن ممتلكاتهم فى إفريقية فى عام (١٨٥٦م) آلت «كلوة» إلى سلطان «زننجبار» العُماني ، ثم استولى عليها الألمان عام (١٨٨٥م) ، وفى عام (١٩١٩م) أصبحت جزءاً من «تنجانيقا» (تنزانيا الحالية) .



٣ - سلطنة بات النبهانية

فى شرق إفريقيا

[٦٠٠ - ١٢٧٨هـ = ١٢٠٣ - ١٨٦١م]

ظهرت هذه السلطنة على مسرح التاريخ نتيجة لهجرة عربية وفدت من «عُمان» إلى ساحل شرقى إفريقيا فى أوائل القرن السابع للهجرة الثالث عشر الميلادى؛ حيث كونت سلطنة إسلامية نبهانية فى «بات» تولت حكم شطر كبير من هذا الساحل ، وظلت موجودة حتى عام (١٢٧٨هـ = ١٨٦١م) .



تمثال من تنزانيا

والنبهانة قوم من العتيك من الأزدي فى «عُمان» كانوا قد استولوا على مقاليد السلطة هناك بعد أن دبت الفوضى فى البلاد وانقسم العمانيون إلى طائفتين متخاصمتين ، وحكم النبهانة عمان نحواً من خمسمائة عام ، حيث قامت دولتهم هناك عام (٥٠٠هـ = ١١٠٦م) أو عام (٥٠٦هـ = ١١١٢م) واستمرت حتى نهاية القرن العاشر الهجرى عندما قامت دولة اليعاربة فى عُمان عام (١٠٢٤هـ = ١٦١٥م) .

ويبدو أن الدولة النبهانية فى عمان قد مرت بأطوار من القوة والضعف بسبب الصراع الداخلى على الحكم ، وكان الطور الأول يشمل مدة قرن من الزمان والذى انتهى بهجرة أحد ملوك النبهانة ، وهو على أرجح الأقوال «سليمان ابن سليمان بن مظفر النبهانى» إلى ساحل شرقى إفريقيا فى عام (٦٠٠ = ٦١١هـ) واستقر هو وأتباعه فى مدينة «بات» التى تقع فى «أرخبيل» لامو (فى كينيا الآن) .

وأقاموا سلطنة هناك وحكموا جزءاً كبيراً من الساحل متخذين من «بات» مقراً لسلطتهم ، وذلك بعد أن استطاع أول سلطان لهم هناك ، وهو «سليمان بن سليمان بن مظفر النبهانى» ، أن يتزوج أميرة سواحيلية ، ليست فارسية ، هى «بنة» (إسحاق) حاكم «بات» فى ذلك الحين ، وعن طريق زوجته ورث الملك ، كما يقال إن والدها تنازل له عن الحكم فأصبح الحاكم الشرعى لبات ، ومن ثم نقل بلاطه من عُمان إلى شرق إفريقيا . وقد نمت هذه السلطنة واتسعت فى عهد أبائهم وأحفاده ، وفى عهد

السلطان «محمد الثانى بن أحمد» (٦٩٠ - ٧٣٢هـ = ١٢٩١ - ١٣٣١م) توسعت السلطنة شمالاً بعد حملات ناجحة قام بها هذا السلطان أخضع فيها كل المدن الساحلية التى تقع شمالى «بات» حتى «مقديشو» وعين حاكماً لكل منها .

وفى عهد ابنه السلطان «عمر الأول» (٧٣٢ - ٧٦٠هـ = ١٣٣١ - ١٣٥٨م) ، توسعت السلطنة جنوباً؛ حيث أخضع المدن الساحلية بما فيها «كلوة» ، ووصل إلى جزر «كيرمبا» جنوب رأس «دلجادو» ، وخضعت له كل هذه المنطقة ماعدا جزيرة «زننجبار» التى لم تكن فى ذلك الوقت قطراً مهماً بدرجة تجذب انتباهه إليها . كذلك فإن حكام «مالندى» أتوا إلى «بات» ليعطوا ولاءهم لسلطانها ، ودخلت أيضاً مدينة «ممبسة» والمستوطنات القريبة منها ضمن منطقة نفوذه ، وهكذا أصبح السلطان «عمر بن أحمد» فى غاية القوة والنفوذ بعد أن أصبحت جميع المدن الساحلية تحت سيطرته .



وقد استمرت سيطرة النباهنة على هذه المناطق وكان لهم فى كل مدينة خضعت لهم عامل أو قاضٍ يعرف باسم «ماجومب» بمعنى الخاضع لليمب أى للقصر الملكى فى «بات» ، وكانت دار الشورى فى «بات» مقرا للحكومة المركزية التى كانت تحكم كل البلاد التى خضعت لهؤلاء السلاطين الذين اتخذوا اللقب السواحيلى «بوانا فومادى» ، أو «فومولوتى» ويعنى الملك أو السلطان .

وقد تميزت سلطنة «بات» بنظم إدارية وتقالييد سياسية واضحة ، وانفردت بتقالييد جديدة فى الملاءمة بين الضرائب وبين النشاط الاقتصادى للأهالى ؛ إذ فرضت ضريبة إنتاج لا يتعدى مقدارها ١٠٪ ، ذلك أن الدولة كانت تتقاضى وسقين أو حملين من كل عشرين وسقاً تنتجها كل جماعة مشغلة بالزراعة ، وهى الضريبة المعروفة بالعشور فى الفقه الإسلامى ، كما دخلت الزراعة فى بقاع كثيرة من الساحل الإفريقى فى فترة الحكم النبهانى ، وظهر كثير من النباتات التى زرعها العرب

وقد نتج عن هذا الثراء تطور حضارى كبير ، فقد أنشأ أهل «بات» منازل كبيرة واسعة ، وضعوا فيها لمبات نحاسية جميلة ، كما صنعوا سلالم أو درجات مزينة بالفضة يتسلقونها أو يصعدون عليها إلى فرشهم أو سررهم ، كما صنعوا سلاسل فضية تزين بها الرقاب ، وزينوا أعمدة المنازل بمسامير كبيرة من الفضة الخالصة ، وبمسامير من الذهب على قممها .

وقد تجلت مظاهر هذه الحضارة العربية أيضاً فى المباني المعمارية وتخطيط المدن وزخارف الأبواب والنوافذ ، كما أدخل العرب فن النقش والحفر والنحت وعقود البناء العالية والفسيفساء المتناسقة مع الرخام الملون .

وفى مجال الثقافة واللغة والعلوم والفنون ظهر فى تلك الفترة ما يعرف باللغة السواحيلية وهى الفترة التى كانت فيها سلطنة «بات» النبهانية صاحبة السيطرة والنفوذ على معظم أجزاء الساحل الشرقى لإفريقيا كما سبق القول ، مما أدى إلى وجود تأثير عربى قوى فى اللغة السواحيلية حتى فى المناطق الجنوبية التى تقع فى «تنجانيقا» و«زنجبار» ، حيث ظهرت أفصح أنواع اللغة السواحيلية .

ونتيجة لذلك ظهرت نظرية تقول بأن الشعب السواحيلى ولغته نشأ كل منهما حول «لامو» حيث توجد «بات» ، وأن المهاجرين العرب الذين أقاموا فى «لامو» وأنشئوا هذه الإمارة تزوجوا من نساء «البانتو» واضطروا إلى استخدام عدد من الكلمات البانتوية بحكم معيشتهم اليومية مع زوجاتهم ، ونشأ أولاد «مولدون» أى نصف عرب ونصف بانتو ، مزجوا بين اللغة العربية لغة آبائهم ، وبين لغة البانتو لغة أمهاتهم ، ومع

استمرار التزاوج والاختلاط والمصاهرة تكوّن الشعب السواحيلى وظهرت اللغة السواحيلية التى أصبحت لغة التجارة ولغة الحياة اليومية ، وسرعان ما انتشرت هذه اللغة فى شرق ووسط إفريقيا نظراً لغناها ومرونتها .

ولاشك أن انتشار اللغة السواحيلية بين السكان الأصليين ، بجانب اللغة العربية التى كانت لغة الطبقة العربية الحاكمة ، كان له أثره الكبير فى نشر الإسلام وثقافته بين القبائل الإفريقية التى تقيم على الساحل ، وتلك التى تقيم حول طرق القوافل الرئيسية مما جعل اللغة السواحيلية عاملاً قوياً فى توحيد السكان فى هذه المنطقة من القارة على اختلاف ألوانهم وتباين لغاتهم ، وتعدد قبائلهم وشعوبهم وأجناسهم ، مما أدى إلى ظهور ثقافة مشتركة هى الثقافة السواحيلية التى غلبت عليها السمة العربية .

ومن ثم فقد ساعد ذلك كثيراً على انتشار الإسلام بين السكان المحليين وتطعيم ثقافتهم بعناصر عربية كثيرة ، خاصة أن هذه اللغة كتبت بحروف عربية ، واستمرت كذلك حتى جاء الاستعمار الأوروبى الحديث وحولها إلى الكتابة بالحروف اللاتينية بهدف إيجاد فاصل بين الثقافة الإسلامية والثقافة السواحيلية الحديثة . وعندما كانت السواحيلية تكتب بحروف عربية دخلها كثير من

الألفاظ العربية ، وقد قدر عدد هذه الألفاظ بحوالى عشرين بالمائة من لغة التخاطب ، وثلاثين بالمائة من السواحيلية المكتوبة ، وخمسين بالمائة من لغة الشعر السواحيلى القديم ، كما أن العرب غرسوا فى السواحيليين حب الأدب وفنون الشعر وخرج منهم شعراء وخطباء مطبوعون ، وأصبح لهم أدب يعتزون به ، وتكوّن تراث كبير من الشعر والنثر السواحيلى مكتوب بالحروف العربية يشتمل على أعمال دينية ودينية ، حتى إنهم عرفوا الشعر الغنائى (المشارى) منذ زمن بعيد يعود إلى ما قبل عام ٥٤٥هـ= ١١٥٠م) ومازالوا ينظمونه ، كما كتبوا شعر الملاحم المعروف باسم «التندى» .

كذلك مهدت اللغة السواحيلية السبيل أمام ظهور شعب جديد هو الشعب السواحيلى ، وقد ساعد فى تكوين هذا الشعب ميل المستوطنين العرب إلى السلم وجهم للسكون والاستقرار ، فإن مستوطناتهم وإماراتهم وسلطنتهم لم تقم على الفتح بل على التجارة ، والتجارة كما هو معروف لا تنشط إلا فى جو من السلام والأمن والعلاقات الطيبة ، كما أن أخلاق الإفريقيين ، وطباعهم كانت قريبة من طباع العرب الذين اعتاد الأفارقة رؤيتهم ورؤية أحفادهم يوغلون فى البلاد ويعملون بالتجارة وينشرون

الإسلام والوثام بين الناس ، فظهر التآلف واتحدت الأهواء والميول ، وظهر ما يعرف بالشعب السواحيلى .

وقد دعم «النباهنة» هذه الثقافة السواحيلية ذات الطابع الإسلامى وذلك بالعمل على نشر التعليم الدينى فى المساجد والمدارس والكتاتيب التى وفد إليها كثير من الوطنيين الأفارقة ليحفظوا القرآن الكريم ويتعلموا الكتابة بالحروف العربية ، بل ويتعلموا اللغة العربية ذاتها ، حتى يتمكنوا من التعمق فى فهم عقيدة الإسلام وتراثه الدينى واللغوى ، وهكذا نرى أن سلطنة «بات» النبهانية قد فرضت نفوذها على معظم أنحاء الساحل الشرقى لإفريقيا ، وأنشأت حضارة إسلامية تغلغت جنوباً وحملها المهاجرون والتجار العرب معهم لا إلى الساحل فقط ، بل إلى الجزر المواجهة له مثل جزر «كلوة» و«زنجبار» و«مبجا» و«مافيا» ، مكونة بذلك دولة كبيرة تعدد سلاطينها حتى بلغ عددهم اثنين وثلاثين سلطاناً ، وقد ظلت هذه السلطنة قائمة رغم مهاجمة البرتغاليين لها ، وبعد طردهم برز العمانيون فى الميدان ووضعوا أيديهم على هذا الساحل بما فيه سلطنة «بات» ، وظل الأمر على هذا النحو حتى جاء الإنجليز واحتلوا هذه البلاد قرب نهاية القرن التاسع عشر للميلاد ، حتى تحررت وصارت تعرف اليوم باسم «جمهورية كينيا» .

الإسلام في الجزر الإفريقية

أما الجزر الإفريقية المواجهة للساحل الشرقي الإفريقي فقد كانت مراكز تجارية وإسلامية مهمة، زحرت بالحياة الإسلامية وانتشر فيها الإسلام بصورة قوية، فمعظم سكان «زنجبار» من المسلمين ويتبعون المذهب «الشافعي»، واللغة التي تسود البلاد هي السواحيلية وهي لغة إفريقية في مبناها، عربية في كثير من مفرداتها، وقد عرف العرب «زنجبار» قبل الإسلام بأعوام طويلة واستمر ترددهم عليها ولاسيما منذ القرن الثامن الميلادي، فقد هاجر إليها كثير من العرب، وكانت تحت سيطرة حكام «كلوة» الإسلامية، ثم وقعت تحت حكم البرتغاليين منذ عام (١٥٠٣م) فشيّدوا كنيسة كبيرة في مدينة «زنجبار»، وقضوا على حكم دولة الزنج.

ولما ازدهرت سلطنة «عمان» في جنوب شبه الجزيرة العربية وقضت على حكم البرتغاليين هناك وفي شرق إفريقيا، انتقل حكم «زنجبار» إلى العمانيين وأصبحت جزءاً من أملاكهم ثم نقل السلطان «سعيد بن سلطان» مقر حكمه إليها عام (١٨٣٢م)، ثم أصبحت محمية بريطانية عام (١٨٩٠م)، وظل سلاطين «آل بوسعيد» يتولون حكمها تحت السيطرة البريطانية حتى نالت زنجبار استقلالها عام

(١٩٦٣م)، ثم انضمت إلى تنجانيقا في اتحاد عرف باسم «تنزانيا».

والإسلام هو الدين السائد في «زنجبار»، وتقدر نسبة المسلمين بنحو (٩٠٪) من مجموع السكان، منهم الشافعية ومنهم الشيعة الإسماعيلية والإباضية. وفي كل من «زنجبار» و«مجا» محكمة شرعية لكل منها قاضيان أحدهما سُني والآخر إباضي، والمساجد كثيرة ولكل طائفة من الطوائف جمعياتها التي ترعى شؤونها ومدارسها ومكاتبها لتحفيظ القرآن. ويوجد في «زنجبار» بعض الآثار العربية والشيرازية، وأهمها بعض المساجد الكبيرة وخاصة مسجد في قرية



مدرسة سنية لنشر الإسلام - زنجبار

مسجد مدينة أكوني بالقمر الكبرى



أهلها كانوا يتكونون من جالية عربية وفدت من شرق إفريقيا، وقد أشار المسعودي والإدريسي إلى هذه الجزيرة، وقالوا إن فيها خلائق من المسلمين ويتوارثها ملوك من المسلمين وأن الإسلام غلب عليها.

والحقيقة أن مظاهر الإسلام في هذه الجزيرة، كانت واضحة وبارزة قبل الغزو الأوربي لها، فالمساجد كانت منتشرة بكثرة، والأهالي يحافظون على أداء الشعائر والعبادات الإسلامية، فقبيلة «الساكلافا» على سبيل المثال يصوم كل أفرادها حتى الآن مسلمون ومسيحيون شهر رمضان، على

اعتبار أن الصوم من التقاليد الموروثة عندهم، وهم لا يأكلون لحم الخنزير، ولا تزال أسماء زعمائهم أسماء إسلامية. وجميع المدغشقرين حتى الذين دخلوا المسيحية على أيدي الأوربيين اعتادوا أن يخسّنوا أولادهم، ولا يزالون يتلون عند الزواج آيات من القرآن الكريم على اعتبار أن ذلك من التقاليد الموروثة أيضاً، ولا يزال أهالي ثغر «ماجنقا» وجميعهم مسلمون يكتبون لغتهم بالأحرف العربية، ويتكلم بها بعضهم.

أما «جزر القمر» التي تقع شمال غربي «مدغشقر» فيقدر عدد المسلمين فيها بأكثر من (٩٥٪) من مجموع السكان، والبقية مسيحيون من أصل فرنسي أو ملجاشي، وقد نزل العرب في هذه الجزر في القرن العاشر الميلادي، والمسلمون فيها يتبعون المذهب الشافعي ويتكلمون اللغة السواحيلية. وقد اعتنقوا الإسلام منذ القرن العاشر الميلادي، وقد غزاها أمراء «كلوة» في القرن الحادي عشر الميلادي واستولوا على بلادهم، ثم جاء الاستعمار البرتغالي في أوائل القرن السادس عشر، ولم يلبث الأهالي أن ثاروا عليه وأخرجوه من بلادهم.



كثرة المساجد بجزر القمر



وكذلك فإن عادات الأهالي في الزواج والختان والولادة وفي الاحتفال بالأعياد الإسلامية وبصوم شهر رمضان وبليلة القدر وبليلة الإسراء والمعراج وغيرها من المناسبات الإسلامية لا تبعد عن العادات والتقاليد التي يتبعها المسلمون في بلدان العالم الإسلامي الأخرى ، مما يدل على مدى عمق العقيدة الإسلامية في نفوسهم ، وعلى مدى الجهد الكبير الذي بذله الدعاة والتجار من العرب وغيرهم في نشر الإسلام في هذه الجزر ، حتى أصبح كل أهلها يدينون بهذا الدين ، ولذلك لا عجب أن انضمت هذه الجزر إلى الجامعة العربية منذ بضع سنين .

طابع الإسلام والثقافة الإسلامية في شرق إفريقيا

بعد الحديث عن السلطنات الإسلامية وحركات الجهاد في بلاد الحبشة والصومال وعلى طول الساحل الشرقي الجنوبي حتى نهر

«زمبيري» في «موزمبيق» نلقى نظرة على طابع الإسلام في تلك الجهات وعن مدى انفعال تلك الشعوب بالإسلام ، ومدى انتشار الثقافة الإسلامية في هذه المناطق .

تميزت الإمارات الإسلامية في هذه المنطقة بطابع أثر في كيانها السياسي وفي موقفها ضد الأحباش والبرتغاليين وفي عطايا الحضاري والثقافي . هذا الطابع تمثل في أن هذه السلطنات والممالك لم يكن بينها أي نوع من أنواع الوحدة السياسية ، وكان من أثر ذلك خضوع معظم هذه الإمارات للأحباش في النهاية رغم حركات الجهاد التي استمرت نحو أربعة قرون من الزمان .

وترجع هذه الفرقة السياسية إلى أن هذه السلطنات تكونت من بطون عربية مختلفة فضلاً عن اختلاف المذاهب الدينية فيما بينها .

فكانت هذه المدن والسلطنات تستقل كل واحدة منها عن الأخرى بنشاطها التجاري ، وكانت العداوات لا تفتأ تشتعل فيما بينها ،



ورشة لصناعة الخشب التقليدية

مثل النزاع بين «مالندة» و«مبسنة» والذي استمر حتى قدوم البرتغاليين الذين استغلوه في السيطرة على هذه المنطقة ، وقد بلغت البغضاء بين هذه المراكز الإسلامية حدا جعل بعضها يتعاون مع البرتغاليين نكاية في الآخرين .

إذن كان طابع هذه الإمارات اقتصادياً صرغاً ، فتنوعت مشروعاتها الاقتصادية ، واشتغلت بالزراعة في المناطق الخصبة ، وجلبت مزروعات جديدة لم تألفها البلاد من قبل مثل البرتقال والذرة والفلفل والأرز والقرنفل . وكان لها أيضاً نشاط صناعي ، فقد عرفت «مقديشيو» بصناعة المنسوجات الرفيعة التي كانت تصدر إلى العالم الإسلامي كما عرفت «سوفالة» باستخراج الذهب إلى جانب التجارة في العاج وجوز الهند والرقيق . وقد أدى ذلك إلى ثراء هذه المدن والسلطنات ثراءً كبيراً ظهر في وصف الرحالة العرب وغيرهم لها .

وقد ترك هذا النشاط الاقتصادي أثره في الحياة الاجتماعية وأدى إلى تنوع الطبقات ، فهناك الطبقة الأرستقراطية من العرب ، وطبقة الهنود الذين تركزت في أيديهم الشؤون المالية والمصرفية ، وطبقة خليط من العرب وأهل البلاد الأصليين ، ثم طبقة العبيد الذين

كانوا يقومون بالأعمال اليدوية في المزارع والمصانع والمتاجر .

وقد تأثرت الثقافة الإسلامية بهذا النوع من الحياة التجارية وبحركات الجهاد المستمر الذي فرض عليها ، سواء في الشمال من مقديشيو ضد الأحباش أم في جنوبها ضد البرتغاليين . فالمدن التجارية والسلطنات التي قامت على طول الساحل كانت ذات صلات وثيقة بالعالم الإسلامي ، وشئون التجارة تفرض تلك الصلات وتنميها وتعمقها ، وكان للتجارة جانبها المضيء في نشر الإسلام وثقافته فقد أتت معها الفرق والمذاهب التي عرفت بها الحياة الإسلامية وقد انتشر فقهاء اليمن والحجاز ومصر في تلك المناطق ، وكان هؤلاء غالباً ما يعملون بالتجارة ، وكان تأثيرهم كبيراً في إذكاء حركات الجهاد هناك ، وقد وفد إلى الأزهر كثير من الطلاب والعلماء وأنشئ به رواق لأهل «زيلع» ورواق للجبرية .

وبرز من هؤلاء العلماء الوافدين إلى مصر طائفة كبيرة من أمثال الشيخ الإمام الزيلعي «فخر الدين عثمان بن علي» المتوفى سنة (٧٤٢هـ = ١٣٤٢م) والمحدث الزيلعي «جمال الدين عبدالله بن يوسف» المتوفى سنة (٧٦٢هـ =

١٣٦٢م) والعارف بالله «الشيخ علي الجبرتي» المتوفى سنة (٨٩٩هـ = ١٤٩٣م) ، وكان هؤلاء العلماء يعودون إلى بلادهم لمتابعة نشاطهم العلمي . وقد وفد إلى تلك البلاد بعض العلماء المصريين ، فابن بطوطة يشير إلى وجود أحد علماء مصر وهو «ابن برهان المصري» في «مقديشيو» .

وقد ترك الجهاد في هذه السلطنات أثره في الحياة الثقافية فقد صبغت الثقافة الإسلامية هناك بطابع ديني عميق ، فقد كان الفقهاء والعلماء من وراء حركات الجهاد التي قام بها سلاطين «عدل» ، وظهر الأمراء الأئمة منذ القرن الخامس عشر الميلادي ، وكان هؤلاء السلاطين يأترون بأمر الفقهاء ويتلقون منهم التوجيه والإرشاد .

وكان انتشار الإسلام يسير في ركاب حركات الجهاد التي قام بها السلاطين في «أوفات» و«عدل» و«هر» . وليس ثمة شك في أن انتشار الإسلام كان مصحوباً بنشاط تعليمي واضح ؛ إذ كلما انتشر الإسلام في مكان خف إليه الفقهاء والمعلمون وأقاموا المدارس والكتاتيب ، وقد لاحظ المستشرق «توماس أرنولد» أثناء تنقله في بلاد الحبشة أن الوظائف التي تتطلب

خبرة خاصة ومستوى ثقافيا معيناً كان لا يشغلها إلا المسلمون ، ويعمل ذلك بأن المسلمين كانوا يعلمون أبناءهم القراءة والكتابة في الوقت الذي كان فيه أبناء المسيحيين لا يتعلمون إلا إذا أرادوا الانتظام في سلك الكهنوت .

وربما كانت الحياة الثقافية في السلطنات الإسلامية التي انتشرت من «مقديشيو» صوب الجنوب أكثر ازدهاراً منها في مدن الشمال ، فقد عاشت هذه المدن عيشة رخاء وطمأنينة منذ نشأتها الأولى حتى بداية الاحتلال البرتغالي في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، ولم تشهد ما شهدته مدن الشمال من جهاد لأجل البقاء ، ولذلك كان أمامها من الوقت ما تعطيه لرعاية الفنون والآداب وأنواع الثقافة الإسلامية المختلفة .

وقد حمل إليها العرب والفرس حبهم للأدب والشعر ، ويبدو أن فترة الاحتلال البرتغالي وما أعقبها من تحرر وانطلاق أنتجت نهضة أدبية وصلت غايتها في القرن الثامن عشر الميلادي ، وامتدت إلى الأدب الشعبي السواحلي ، فظهر في هذا الميدان شاعر من أهل الجنوب اسمه «موياس بن الحاج الغساني» بلغ إنتاجه درجة عالية من التفوق .

كما أنتجت ثقافة دينية عميقة تمثلت في مؤلفات السيد «عبدالله بن علي» في كتابه المسمى «الانكشاف» وكان يدرس في المدن

الجنوبية كلها في الأربطة والزوايا وغيرها .

وأيضاً في الهمزية التي ألفها السيد «عيد اروس بن الشيخ علي» من أهل «لامو» والتي اشتملت على نزعة دينية عميقة .

وكان تأثر تلك البلاد بالتقاليد والحياة الإسلامية واضحاً في انتشار الطرق الصوفية ، وقد تم تبسيط هذه الطرق لتلائم عقلية البدائيين من أهل تلك البلاد .

ويبدو أن الطرق الصوفية لم يكن لها وجود كبير في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي في الوقت الذي زار فيه «ابن فضل الله العمري» هذه البلاد ، فهو يتحدث عن المدارس والخوانق والروابط والزوايا ولا يشير إلى الصوفية إلا كأفراد .

والقادرية هي أولى الطرق الصوفية التي دخلت بلاد الحبشة على أيدي المهاجرين من اليمنيين والحضارة ، وقد انتشرت الفرق الصوفية في «مصوع» و«زيلع» و«مقديشيو» وفي المراكز الإسلامية على الساحل الشرقي جنوب «مقديشيو» ، وفي الجزر الإفريقية المواجهة له .

وقد داعت بين مسلمي الحبشة والصومال عادة تقديس الأولياء وانتشرت أضرحتهم في طول البلاد وعرضها ، وأغلبهم من الغرباء الذين وفدوا على البلاد وادعوا

انتسابهم إلى بني هاشم ، وقد ظهر فضلهم وتقواهم وتشفهم وعلمهم ، فتأثر بذلك المسلمون الذين نالوا حظاً محدوداً من التعليم ولاسيما في المدن والقرى . وكان هؤلاء الشيوخ يؤمون الناس في الصلاة ويعلمونهم القرآن والحديث ، فإذا ماتوا أصبحت أضرحتهم مركزاً للتعليم يفد إليها الناس ، ومن أشهر هؤلاء الأولياء «الشيخ سعد الدين» في «زيلع» ، والشيخ «عمر السكري» ، و«الأمير نور بن المجاهد» في «هر» .

وعلى ذلك فقد قامت سلطنات وإمارات إسلامية في بلاد الحبشة والصومال وجنوباً على طول الساحل الشرقي حتى نهر «زيمبيزي» في «موزمبيق» ، وفي الجزر الإفريقية المواجهة له . وكان نصيب هذه الإمارات هو الدخول في صراع الحياة والموت أمام خطر الأحباش بالنسبة إلى السلطنات الشمالية وطوال أربعة قرون من الثاني عشر إلى السادس عشر ، ذلك الصراع الذي انتهى بإخضاع معظم هذه الإمارات سياسياً للأحباش حتى تم تحرير معظمها في النصف الثاني من القرن العشرين ، ثم مواجهة خطر البرتغاليين بالنسبة إلى سلطنات الجنوب بدءاً من القرن السادس عشر وطوال القرن السابع عشر ، حتى تم تحرير تلك المناطق من البرتغاليين على يد العرب العُمانيين .

وإذا كان الإسلام قد انتشر في إفريقيا جنوب الصحراء على هذا النحو الذي تحدثنا عنه ، فقد أصبحت القارة الإفريقية هي القارة المسلمة الوحيدة في العالم كله ؛ حيث إن أغلبية سكانها بما لا يقل عن (٦٥٪) مسلمون ، وأصبح الإسلام هو مستقبلها ، فما هو الأثر الذي تركه منذ انتشاره في هذه القارة ؟

رابعاً - أثر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء

قبل أن نتحدث عن أثر الإسلام في حياة الأفارقة جنوب الصحراء نود أن نقدم لهذا الحديث بشهادة وردت على لسان أحد الأوربيين المتصفيين ويسمى «ميك» في كتابه فقال : «إن الإسلام لم يترك أثراً عميقاً في التركيب الجنسي لهذه الشعوب فحسب ، بل إنه جاء بحضارة أتاحت للشعوب الزنجية طابعاً حضارياً لا يزال واضحاً حتى اليوم مؤثراً في نظمهم السياسية والاجتماعية ، ذلك أن الإسلام حمل الحضارة إلى القبائل المتبربرة ، وجعل من المجموعات الوثنية المنعزلة المتفرقة شعوباً ، وجعل تجارتها مع العالم الخارجي ميسورة . فقد وسع من الأفق ورفع من مستوى الحياة بخلق مستوى اجتماعي أرقى ، وخلع على أتباعه

الكرامة والعزة واحترام الذات واحترام الآخرين . . لقد أدخل الإسلام فن القراءة والكتابة ، وحرم الخمر ، وأكل لحوم البشر ، والأخذ بالثأر ، وغير ذلك من العادات الوحشية ، وأتاح للزنجي السوداني الفرصة لأن يصبح مواطناً حراً في عالم حر» .

وشهادة ثانية يتحدث فيها صاحبها «جرانفيل» (الكونغولي) في العصر الحديث عن شيء من أثر العروبة والإسلام في عمق القارة فيقول : «لقد زور البلجيك في الكونغو ، فليست مدينة ستانلي فيل سوى مدينة تيبوتيب وهو الزعيم حميد بن محمد المرجبي العُماني العربي الذي أقام هذه المدينة قبل قدوم الرحالة ستانلي ،

وليس العرب كما قالوا لنا تجار رقيق ، وإنما هم تلك الموجة الإنسانية التي اختلطت بنا وصاهرتنا وتركوا لنا لغة متولدة من لغتهم - يقصد اللغة السواحيلية - ودينًا ، وحضارة ، وسماحة تسرى بين كل الناس ، كما تركوا على أرضنا دماءهم والبلجيك يحصدونهم بالأسلحة الحديثة ، وليس أعز علينا شيء من هذا الدم العربي الذي سال في الماضي كما سال ويسيل دمنا الآن في بلادنا على أيدي أعداء العرب أنفسهم في القرن الماضي» .

ونشير الآن في إيجاز شديد إلى أثر الإسلام وحضارته في شتى ميادين الحياة في إفريقيا جنوب الصحراء :





الدين والعقيدة :

وفى هذا المجال نستطيع القول إن الإسلام قضى على العقائد الوثنية وحلت الوحداية محل عبادة الأرواح والأسلاف ومظاهر الطبيعة، فاستبدل الناس الإسلام بهذا الشتات والفرقة الدينية الوثنية ذات الطبيعة الخرافية والوهمية ، وتم القضاء على تحكم أرواح الأسلاف والأجداد - كما كانوا يعتقدون - فى حياة الأحياء ؛ إذ كانت أرواح هؤلاء الأسلاف من الموتى هم الرؤساء الفعليون للأسرة وللقبيلة كلها ، وهم القوامون والمراقبون لسلوك الأحياء ، ولهم عليهم حق الثواب والعقاب ، ولابد من استشارتهم فى كل أمر من أمور الحياة ومشاكلها . كما

وفى جمعهم على عبادة واحدة وإله واحد وشريعة واحدة ذات نظم واضحة تنظم حياة الفرد والمجتمع .

الحياة الاجتماعية :

وفى هذا الصدد نستطيع القول إن الإسلام خلّصهم من عادات سيئة كثيرة مثل العرى وأكل لحوم البشر ودفن الجوارى والخدم والزوجات مع الملك المتوفى ، وواد الأطفال أحياء ، وكان هؤلاء الأطفال يوءدون لا شئ إلا لأنهم وُلدوا مشوهين ، أو وُلدوا وبهم مس من الشيطان كما كان يعتقد آبائهم ، أو لأن أسنانهم العليا ظهرت أولا ، وهو فال سيئ عندهم ، فكانت بعض القبائل تترك هؤلاء الأطفال فى الغابة تخلصاً منهم ، ولكن الإسلام

عدّل هذه العادة بين المسلمين الأفارقة .

زد على ذلك أن الإسلام علمهم النظافة فأخذ الأهالى الذين لم يتعودوا من قبل على النظافة يغتسلون ويتنظفون ، لأن إقامة الشعائر الدينية الإسلامية لا تصح إلا بظاهرة البدن والملبس والمكان . يضاف إلى ذلك أن الإسلام نظمهم فى الزواج ونظام الأسرة ، إذ جعل الرجل هو المسئول الأول عن الأسرة



يرث زوجات أبيه بل ويتزوج بهن ، وكان نظامهم أن ابن الزوجة الأولى هو الذى يختص بميراث أبيه كله عند وفاته ويحرم منه باقى الأبناء فوضع الإسلام نظاماً عادلاً لتوزيع التركة بين أفراد الأسرة جميعاً إذا مات عائلها ، حسب نظام دقيق يعطى لكل ذى حق حقه دون زيادة أو نقصان ، ودون ظلم أو بهتان ، مما أورث الحب والمودة فى قلوب الأبناء وزرعها محل الكراهية والبغضاء .

ولا يقل عن ذلك أهمية أن الإسلام أزال تقسيم الناس إلى طبقات حسب اللون أو العنصر أو الثروة أو المنزلة الاجتماعية ، وجعل الإخاء والمساواة والتعاون والتكافل أساس الحياة الاجتماعية ، وأصبح الأسود باعترافه الإسلام على قدم المساواة مع غيره داخل وطنه ، ومع إخوته فى الإسلام فى أى مكان آخر ، مما أشعره بالعزة والكرامة والاعتداد بالنفس بعد أن كان عبداً مهاناً يتحكم الملك الإفريقى الوثنى أو شيخ القبيلة فى أموره كلها بل فى حياته نفسها ، وأصبح سلوك الناس ملوكاً وعامة مضبوطاً بضوابط الإسلام وشريعته وأحكامه ، ولم يصبح مرتعناً بأوامر الملك المقدس ونزواته أو نزوات شيخ القبيلة . وبذلك حرر الإسلام الإنسان الإفريقى وكل إنسان يعتنقه من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد .

الحياة الاقتصادية :

كان النظام الاقتصادي يقوم على احتكار شيخ القبيلة أو الملوك أو الزعماء للأرض والثروة الحيوانية والمحاصيل الزراعية وحق المتاجرة في سلع معينة ، فلا يحق للناس العاديين تملك شيء فقد كانوا هم والأرض وما ينتجونه منها ملكاً للملك . فلما جاء الإسلام قضى على ذلك ، فأطلق حق التملك حسب الجهد والطاقة وبذل المجهود والعمل ، وجعل كسب المال أمراً متاحاً للجميع كل حسب جده وكده ، ففضى بذلك على الإقطاع والاستغلال والاحتكار ، كما قضى على العبودية ونظام السخرة فصار العامل يأخذ أجره عما يقوم به من عمل بعد أن كان يعمل في مزرعة الشيخ أو الملك دون أجر .

كما حرم الإسلام الربا وفرض الزكاة التي كان الأغنياء يدفعونها للفقراء ، وكان السلاطين يأخذونها ويوزعونها في مصارفها الشرعية ، مما جعل حياة الناس محاطة بسياج من العدالة والأمن والرخاء .

وقد جلب الإسلام للأفارقة منافع مادية ضخمة ؛ إذ ربط الساحل بالداخل من خلال قوافل التجارة التي توغلت حتى الكونغو ومنطقة البحيرات ، وحتى أعماق الغابة في غرب القارة مما أدى إلى

القضاء على عزلة المناطق الداخلية ، بل وعلى عزلة الأفارقة عامة وربطهم بالعالم الإسلامي الواسع وبجارتها الزاهرة ، وقد أتاح لهم إسلامهم أن يخرجوا من أوطانهم المحلية ويتعرفون على هذا العالم الواسع ، سواء أكان من خلال رحلات الحج التي كانوا يقومون بها إلى بلاد الحجاز ، أم من خلال قوافل التجارة التي كانوا يرحلون معها إلى شتى الأقطار حتى وصل بعضهم إلى الهند والصين .

الحياة الثقافية :

وفي هذا المجال كان أثر الإسلام أمراً غير مسبوق ، ذلك لأن الأفارقة لم تكن لهم ثقافة ناهضة راقية قبل اعتناقهم الإسلام ، ولم يكونوا يعرفون مجرد القراءة والكتابة ، بل لم يكونوا يعرفون من الثقافة إلا العادات والتقاليد المرتبطة بالكهانة والسحر والشعوذة ، وبالطبيعة من مطر وجذب وإنبات وحصاد ونبوءات وأساطير ، فلما جاء الإسلام أمدهم بالعلم والفن الرفيع ، وعلمهم القراءة والكتابة ،

واستقدم لهم العلماء من مصر والمغرب وتونس وشتى أنحاء العالم الإسلامي ، بل وأرسل طلابهم إلى هذه البلدان استزادة من العلم والفقه ، وبنى لهم المدارس والكتاتيب ، وزودهم بلغة القرآن وهي اللغة العربية التي وحدت مشاربهم ونسقت أفكارهم وربطتهم بالدين والعقيدة الإسلامية ، فمهدت السبيل أمام ظهور ثقافة إفريقية إسلامية مشتركة بعد أن صارت هذه اللغة هي لغة العلم والدراسة والإدارة والتجارة والعبادة

بل والتخاطب بين قبائل كثيرة في القارة . وأصبح العلماء الأفارقة هم حلقة الربط والوصل بين هذا المجتمع السوداني الزنجي وبقية المجتمعات الإسلامية ، بذهابهم إلى هذه المجتمعات كما قلنا لمزيد من الدراسة والعلم أو تأدية لفريضة الحج ، وبذلك تم القضاء على التخلف الثقافي والحضاري والفكري الذي كان يسود المجتمعات الإفريقية ، وأصبح الإفريقي يزهو بأنه يجيد القراءة والكتابة ، بل يفخر بأنه أصبح من العلماء والفقهاء

مثله في ذلك مثل غيره من علماء المسلمين في كافة ديار الإسلام .

ولقد أدى هذا الرقي العلمي والثقافي الذي وصلوا إليه أن الدول الإفريقية التي لا يحكمها مسلمون كانت الوظائف التي تتطلب خبرة خاصة ومستوى ثقافي معين كان لا يشغلها إلا المسلمون من أهلها ، لأن هؤلاء المسلمين كما يقول «توماس أرنولد» كانوا أعلى همة وأوفر نشاطاً وأرفع مستوى من غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى ، لأن كل مسلم كان ملتزماً بتعليم أبنائه القراءة والكتابة بينما كان غيرهم لا يعلمون أبناءهم إلا عندما يريدون لهم الانتظام في سلك الكهنوت . ولم يفعل المسلمون ذلك إلا لأن الإسلام جعل من التعليم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وبذلك تغير حال الأفارقة وأنتجوا علماء وفقهاء وأدباء وحضارة لم يطمس معالمها إلا الاستعمار الأوربي الذي أصيبوا به في مطلع العصر الحديث .

الوحدة السياسية :

لم تعرف إفريقيا جنوب الصحراء قبل الإسلام دولا كبيرة أو صغيرة إلا القليل ، وكان النظام القبلي هو السائد ، وعندما ظهر الإسلام ودخل القارة (جنوب الصحراء) لم يكن فيها من الدول المعروفة وقتذاك إلا مملكة «غانة» الوثنية في غرب القارة ، أما في



المراجع والمصادر

- إبراهيم طرخان : إمبراطورية غانة الإسلامية - القاهرة - ١٩٧٠ م .
- إبراهيم طرخان : دولة مالى الإسلامية - القاهرة - ١٩٧٣ م .
- إبراهيم طرخان : إمبراطورية البرنو الإسلامية - القاهرة - ١٩٧٥ م .
- أحمد بابا التنبكى : نيل الابتهاج بتطريز الديباج - طرابلس - ليبيا - ١٩٨٩ م .
- أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى - ج ٦ - الطبعة الرابعة - القاهرة - ١٩٨٣ م .
- أحمد على أحمد : كلوة ، تاريخها وحضارتها ، رسالة ماجستير غير منشورة - جامعة القاهرة - ١٩٨٣ م .
- الإدريسي : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق - بيروت - ١٩٨٩ م .
- بازل دافدسون : إفريقيا تحت أضواء جديدة - بيروت - بدون تاريخ .
- ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد) : تحفة النظار فى غرائب الأمصار - بيروت - ١٩٨٧ م .
- البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب - القاهرة - بدون تاريخ .
- بوركهات : رحلات بوركهات فى بلاد النوبة والسودان - القاهرة - ١٩٧٩ م .
- ترمينجهام : الإسلام فى شرق إفريقيا - القاهرة - ١٩٧٣ م .
- توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام - القاهرة - الطبعة الثالثة - ١٩٧١ م .
- التونسى : تشييد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان - القاهرة - ١٩٦٥ م .
- جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقيا الشرقية - القاهرة - ١٩٢٧ م .
- حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٨٤ م .
- حسن عيسى عبد الظاهر : الدعوة الإسلامية فى غرب إفريقيا - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٩١ م .
- حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا - القاهرة - الطبعة الثالثة - ١٩٨٦ م .
- الحسن الوزان : وصف إفريقيا - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٨٣ م .
- الحيمى : سيرة الحبشة - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٧٢ م .
- رجب محمد عبد الحليم : العروبة والإسلام فى دارفور فى العصور الوسطى - القاهرة - ١٩٩١ م .
- زاهر رياض : الإسلام فى إثيوبيا - القاهرة - ١٩٦٤ م .
- زين العابدين عبد الحميد السراج : دولة كاتم الإسلامية - رسالة ماجستير - آداب القاهرة - ١٩٧٥ م .
- السعدى : تاريخ السودان - باريس - ١٨٩٨ م .
- سعيد المغيرى : جبهة الأخبار فى تاريخ زنجبار - القاهرة - ١٩٨٩ م .
- الشاطر بعبلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط - القاهرة - ١٩٧٢ م .
- عبد الرحمن زكى : الإسلام والمسلمون فى غرب إفريقيا ، الإسلام والمسلمون فى شرق إفريقيا - القاهرة - بدون تاريخ .
- عبد الفتاح مقلد : سلطنة البرنو حتى عام ١٨٠٨ م ، رسالة ماجستير غير منشورة - جامعة القاهرة - ١٩٧٨ م .
- عرب فقيه : فتوح الحبشة (تحفة الزمان) - القاهرة - ١٩٧٢ م .
- عطية القوصى : دولة الكنوز الإسلامية - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٨٦ م .
- فتحى غيث : الإسلام والحبشة عبر التاريخ - القاهرة - بدون تاريخ .
- القلقشندي (أحمد بن على) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا - ج ٥ ، ٨ - القاهرة - بدون تاريخ .
- محمد بلو : اتفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور - القاهرة - ١٩٦٤ م .
- محمد ضيف الله : كتاب الطبقات - بيروت - بدون تاريخ .
- محمد النقيرة : انتشار الإسلام فى شرقى إفريقيا - الرياض - ١٩٨٢ م .
- محمد النقيرة : التأثير الإسلامى فى غربى إفريقيا - الرياض - ١٩٨٠ م .
- محمود التنبكى : تاريخ الفتاش - باريس - ١٩١٦ م .
- محمود الحويرى أسوان فى العصور الوسطى - القاهرة - ١٩٨٠ م .
- مصطفى أبو شعيشع : برنو فى عصر الأسرة الكافية - رسالة ماجستير غير منشورة - جامعة القاهرة - ١٩٧٦ م .
- مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى - القاهرة - ١٩٦٠ م .
- مكى شبيكة : السودان عبر القرون - بيروت - ١٩٦٤ م .
- نعم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته - القاهرة - ١٩٠٣ م .
- ياقوت الحموى : معجم البلدان - ج ٥ - بيروت - ١٩٧٩ م .

أمرًا إلا بعد استشارتهم ، فعل ذلك - أيضًا - الملوك الوثنيون الذين لم يكونوا قد دخلوا الإسلام بعد و«البكرى» يقص علينا نبأ ملك «غانة» الوثنى الذى اتخذ من العلماء المسلمين الذين كانوا يقيمون فى عاصمته وزراء ومستشاريه .

وقد أقام الحكام والسلاطين دورًا للشورى كان واحدها يسمى «المشور» وكان هذا «المشور» هو المكان الذى يلتقى فيه الحاكم بالمحكومين ، فإذا أصيب أحد من الرعية بظلم أو أصابه مكروه على يد غيره من الرعية أو الحكام كان يلجأ على الفور إلى «المشور» ويرفع مظلمته ، فكان يقضى فيها على الفور على يد العلماء والفقهاء أو على يد الوزراء والسلطان نفسه حسب نوع المظلمة . ولذلك ساد الأمن والأمان والطمأنينة حياة الناس فيما عدا أوقات الفتن والاضطرابات والحروب .

هذا هو الإسلام وذاك هو تأثيره ، وتلك حضارته التى أدهشت الرحالة المسلمين والبرتغاليين ومن أتى بعدهم من الأوربيين ، ولكن هذه الحضارة تلقت ضربة عنيفة على يد الغزاة البرتغاليين وإخوانهم من الأوربيين الآخرين فى العصر الحديث حيث أخضعوا هذه القارة بكاملها لنفوذهم وسيطرتهم ونهبهم واستغلالهم ، وحاربوا الإسلام وثقافته وحضارته ولغته بقدر ما وسعهم الجهد وبكل وسيلة ممكنة ولكن إفريقيا جنوب الصحراء بعد أن نالت استقلالها بدأت تفيق من هذا الكابوس الرهيب وتلتمس فى الإسلام طوق النجاة من جديد .

وسط القارة فلم يكن هناك إلا دولة «الكاتم» الوثنية فى حوض بحيرة تشاد ، وهذه الدولة لم تنشأ إلا فى القرن التاسع للميلاد ، أى بعد ظهور الإسلام بحوالى قرنين من الزمان ، أما فى شرق القارة فكانت هناك دولة واحدة هى مملكة الحبشة المسيحية ، وفى أقصى الجنوب كانت هناك مملكة «مونوموتابا» الوثنية ، وباقى إفريقيا جنوب الصحراء لم يكن فيها إلا المشيخات القبيلة لا غير ، وكانت حياة الناس لا ينظمها قانون أو شريعة ، إلا ما يقوله الملك أو الشيخ ، فكلمته هى القانون ، لأنه هو الذى يهب الحياة ويقضى بالموت ، ويبارك الزرع والحصاد ، وينزل المطر ، ويتحكم فى كل ما على وجه الأرض ، لأنه ببساطة هو الإله والرب المعبود .

وعندما جاء الإسلام لم ينشئ دولا صغيرة شبيهة بالتى أشرنا إليها من قبل فقد أقام إمبراطوريات إسلامية كبرى سبق الحديث عنها ، وجمع القبائل المتفرقة المتنازعة والعناصر المتباينة داخل هذه الإمبراطوريات الكبيرة ، وقضى على عادات هذه القبائل فى النهب والسلب والإغارة ، وقضى أيضًا على استبداد الحكام وتآلههم وظلمهم للرعية ، بل وجعلهم يخضعون لرجال من رعيتهم نالوا قسطًا وافرًا من العلم والثقافة هم العلماء والفقهاء ، فكانوا لا يبرمون

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الطرق التي سلكها الإسلام إلى قارة إفريقيا.	٥	ثالثاً: الإسلام في شرق إفريقيا.	٧٩
أولاً: الإسلام والدول الإسلامية في غرب إفريقيا.	٢٢	الإسلام والسلطنات الإسلامية في بلاد الحبشة والزيلع.	٧٩
دولة غانة الإسلامية.	٢٦	سلطنة شوا الإسلامية.	٨١
سلطنة مالي الإسلامية.	٣١	سلطنة أوفات الإسلامية.	٨٣
سلطنة صنغى الإسلامية.	٣٧	سلطنة عدل الإسلامية.	٨٦
سلطنة الكانم والبرنو الإسلامية.	٤٢	الإسلام والسلطنات الإسلامية في منطقة الساحل الشرقى لإفريقيا.	٩٠
إمارات الهوسه الإسلامية في شمال نيجيريا.	٥١	سلطنة مقديشيو الإسلامية (الصومال).	٩١
سلطنة البلالة الإسلامية في حوض بحيرة تشاد.	٥٥	سلطنة كلوة الإسلامية.	٩٤
الطابع الإسلامى والثقافة العربية في غربى إفريقيا.	٥٨	سلطنة بات النبهانية في شرق إفريقيا.	٩٧
ثانياً: الإسلام والعروبة في السودان وادى النيل.	٦٦	الإسلام في الجزر الإفريقية.	١٠٠
سلطنة الفونج الإسلامية في سنار.	٦٩	طابع الإسلام والثقافة الإسلامية في شرق إفريقيا.	١٠٢
سلطنة دارفور الإسلامية.	٧١	أثر الإسلام في إفريقيا جنوبى الصحراء.	١٠٥

تتناول هذه الموسوعة تاريخ الإسلام والمسلمين بدءاً من بعثة النبي ﷺ حتى إلغاء الخلافة الإسلامية عبر رقعة كبيرة من الأرض امتدت حدودها من الصين وإندونيسيا شرقاً إلى الأندلس والمحيط الأطلنطي غرباً ، ومن أواسط آسيا شمالاً إلى المحيط الهندي وأقصى إفريقيا جنوباً .

وقد انتهجت الموسوعة منهج الحياد في عرض الوقائع والأحداث ، دون مبالغة في ذكر الأمجاد والبطولات ، أو تهوين من العيوب والأخطاء .

وإذا كان استخلاص الدروس والعظات والاعتبار بتجارب السابقين أحد أهداف دراسة التاريخ ، فإن ذلك لا يتحقق إلا بالدراسة الموضوعية للمواقف والأحداث .

والأهم الحية هي التي تدرس تاريخها ، وتتعلم من أخطائها قبل أن تباهى بأمجادها أو تفخر بأبطالها .

سفير ٥ شارع جزيرة العرب - المهندسين - القاهرة - ص . ب : ٤٢٥ الدقي
ت ٣٣٧٩٧٥٢ - ٣٣٥٣٧١١ - ٣٣٥٣٧١٢ - ٣٤٩٤١٣٩ فاكس ٣٤٨٠٢٩٩



أجزاء الموسوعة:

- ٥ - مصر والشام والجزيرة العربية.
- ٦ - المغرب الإسلامي.
- ٧ - المسلمون في الأندلس.
- ٨ - تاريخ الدولة العثمانية.
- ٩ - المسلمون في إفريقيا جنوبى الصحراء.

- ١ - عصر النبوة والخلافة الراشدة.
- ٢ - العصر الأموي.
- ٣ - العصر العباسي في العراق و المشرق.
- ٤ - المشرق الإسلامي بعد العباسيين.